النسيم والهجير

د . مصطفى عطية جمعة

(روايـــــــــــــــــة)

النسيم والهجير

❖ اسم العمل: النسيم والهجير (روايـــــة)

❖ الكاتب: د. مصطفى عطية جمعة

❖ إخراج داخلي: سليل الفراعنــة

❖تصميم الغلاف: عبير فاروق & أمل رضوان

❖ رقم الإيداع: 2023/ 30665

❖ الترقيم الدولي: 978-977-87036-9-6

(جميع الحقوق محفوظة للناشر وأي انتهاك سيعرض صاحبه للمساءلة القانونية

هذه النسخة مخصصة للقراءة فقط، ولا يجوز إعادة طبعها أو نسخها أو نشرها إلا

بعد الحصول على إذن كتابي من الناشر)

متون المثقف للنشر والتوزيع

خالد عدلي

00201002688188

info.mothakf@gmail.com

9 789778 703696

(روايـــــــــــــــــة)

النسيم والهجير

د. مصطفى عطية جمعة

متون المثقف
للنشر والتوزيع

الإهداء

إليهن ..

عندما تصبح الحياةُ ذكرى

والذكرى حاضرا

والحاضر ذكرى

❊ ❊ ❊

(١)

تلك هي طقوسها الصباحية المكرورة: استيقاظ قبل تنفّس الصبح في شتاء خليجي، يقصُرُ نهاره الدافئ، ويتمدد ليله، مع برودة نسبية متسربة من ثغرات النافذة الزجاجية بأطرها المصنوعة من الألومنيوم، تستشعرها ذاتُها بين جدران غرفتها ذات الصبغ الأبيض، الذي تعشقه، وتردد دائما أنه يدفع الظلام والوحدة عنها، ويجعلها تغوص في نومها بأنفاس عميقة، وإن تخللته انتباهات قلقة تفتح فيها عينيها، فتتأمل النافذة، فتسعد بظلمات دامسة تغلّف الكون خارج غرفتها، فتُسلم جفونها للنعاس ثانية. تعلم جيدا أن أمامها سويعات وستباشر روتينية يومها في حركة دائبة، تغادر فيه سكن المعلمات المغتربات، إلى مدرستها الابتدائية، لتغرق في دوامة العمل المعتادة.

رنين المنبه بهاتفها النقال، تسكته بضغطة واحدة، تهب متحركة إلى الحمام الملاصق لغرفتها، تستمتع كثيرا بالماء الدافئ، ثم تسارع بالصلاة قبل بزوغ الشروق، داعية بحرارة لحبيبيها، هناك في الإسكندرية شمال مصر، وهما يتخاتلان أمامها: الابن "وليد" ذو ستة عشر عاما، و"سَمَر" البنوتة الشقية بأعوامها الإحدى عشر، التي ورثت ملامحها، وصارت تذكّر العائلة بالأم، التي اغتربت منذ سنوات. بل إن عمّها ينادي البنوتة باسم الأم، وهو يعكس المثل الدارج، فيقول: فولة من بطن فولة، ولم تنقسم إلى نصفين. تبتسم الأم وهي تتذكر هيئة ابنها وليد وقد جاوزها طولا،

واخشنّ صوته، فصار أجش، وغاب صوته الطفولي الذي كانت تلتقطه عن بعد. أما "سمورة" البنوتة، فهي غزيرة الشعر، نابض وجهها بضحكة عذبة، لا تعرف الصمت، وتقول لمن يحاورها ويطلب منها السكوت: "ومن قال إنني لا أسمعك، أنا أسمع وأتكلم في الوقت نفسه"، فترتفع الضحكات عالية، خاصة إذا كان جدّها لأمها هو محدّث البنوتة، ولا يجد أمامه إلا أن يحتضن حفيدته الشقية، التي تذكّره بكبرى بناته "حنان" في طفولتها.

وهكذا دأبت أن تكون ذاكرتها حيّة أينما تحرّكت، وهكذا تقول لنفسها، بأن الغربة علّمتها أن تحيا بالذكريات، تستلذ بها كلما استعادتها، وكأنها مشهد سينمائي، كلما شاهدته، وجدت فيه الجديد من التفاصيل، بل وتتمعن فيه أكثر، بحثا عن المزيد من المنمنات التي تبهجها.

حركتها في الغرفة سريعة. يتكرر أزيز ضلفات الدولاب مع فتحها له، لتكمل ارتداء ملابسها، متطلعة إلى زجاج النافذة، وقد آذنت الشمس بالشروق؛ متسللةً من الستائر الرمادية المنسدلة، منبئةً عن ضوء صباحيٍ بدا غائما نسبيا؛ بفعل تراكم سحب داكنةِ اللون، حجبتْ قرص الشمس، وإن سمحت بتسلل نثيرات من أشعته. تمتمت حنان: سيكون يوما رماديا. ذلك اللون الذي تعشقه، على عكس النساء في رأيها، اللائي يتعلقن بألوان ناعمة مثل تدرجات العنابي والأصفر والبمبي.

تأملتْ ما هو خارج النافذة، بعدما أزاحت الستارة، وفتحت مصراعها، فتدفّق هواء الصباح منعشا، متشبّعًا من هواء الخليج التي تضرب أمواجه

على الشاطئ غير بعيد عنها. ما أقسى الزجاج عندما يكتم عنا النسمات الصافية!

دبّت الحياة في الشارع، وها هو الطريق السريع، الذي تشرف عليه عمارتها السكنية: السيارات تمرق على الأسفلت اللامع؛ بفعل قطرات الندى. الأجواء رمادية، تبشر بأمطار ربما تكون رعدية، أو زخّات قليلة، يعقبها انبلاج الشمس الدافئة، وستلمع الطرقات المبتلة بضيائها.

تتداعى -في خاطرها- مدينتها الإسكندرية؛ بامتداد سواحلها من خليج أبي قير، إلى شاطئ العجمي. شتاؤها ذو الغيوم القاتمة، وشوارعها المغسولة بأمطار دوما متراوحة بين الرذاذ والهطول، وكأنها تحنو على مدينتها فتشبعها بعذوبة قطراتها، التي لا تعرف توقفًا طيلة شهور البرد. وما أحلى السير على شاطئ البحر! في أي موضع فيه، تداعب الأمواج في تدفقاتها السرمدية على الرمال الناعمة، وسرعان ما يزيل المطر رذاذ الموج المالح عن الوجه والأقدام.

ذاك كان عشقها للبحر، في الشتاء أكثر من الصيف، تشعر أنه ملكها وحدها، بلا زحام أو ضجيج، خاصة عندما تغدو ذاهبة من الجامعة في منطقة الشاطبي في إسكندريتها الغالية، ثم تعبر طريق الكورنيش، وتنحدر على سلالم الشاطئ، لتعانق الصقيع مع الرياح التي تجلب الأمواج معها.

فردَت البطانية بملمسها المخملي، الناضح دفئا على فراشها، وتركَتْها تتشبع بالشمس والهواء المتدفقين من النافذة. وبذلك تكون قد أنهت طقوسها

الصباحية، متهيأة للخروج، ثيابها فخمة، ومكياجها خفيف، وأخيرا انتقت حقيبة بنية اللون تناسب طاقمها المؤلف من قطعتين: بلوزة صوفية خليط من البيج والأصفر، على بنطال بُنّي غامق واسع الأرجل. ألقت نظرة على حاجياتها المرتبة في دولابها الكبير؛ بما يتناسب مع تعمّدها تغيير أطقم ملابسها كل يوم، فأناقتها عنوان على شخصيتها، وكان عليها أن تنظر ثانية إلى المرآة، ثم تبتسم في حبور.

إفطارها: شطيرتا جبن ومربى، تدسّهما في حقيبة يدها مع حبات الكرز الحمراء. تهمّ بالمغادرة، فيأتيها –كالعادة- صوت زميلتها في الشقة "عواطف"، وهي تنهض من فراشها متثائبة، فالزمن معدوم القيمة عندها كما تردد دائما. تدبّ عواطف الأرض بخطواتها البطيئة المتثاقلة، متمتمةً بكلمات تخاصم دوامها المدرسي، الذي يجبرها على تبكير في الاستيقاظ، مثلما يجبرها على نوم مبكر، وهي المتيمة بالسهر.

– -صباح الخير يا حنان.

ترد حنان ضاحكة بحنو، وهي تخرج سلسلة مفاتيحها، متأهبة لفتح باب الشقة.

– -صباح النوم والنور.

تحاول عواطف الابتسام، ولكن تثاؤبها يغلبها، فقد حملت ملامحها عناء نوم متقطع، ما بين سهاد وتفكير وقلق. دائما تغبط "حنان" على نومها العميق، وشخيرها الهادئ، متسائلة عن كيفيته. ونظرا لأنه سؤال متكرر، وإجابته متكررة أيضا، فآثرت حنان تحيتها بالإشارة، وهي تضغط على زر

المصعد. تتحرك عواطف لتغلق باب الشقة، الذي تركته حنان مفتوحا، باتفاق بينهما منذ تشاركا في الشقة؛ لتجبرها على التحرك خطوات كثيرة في الصالة لتغلق الباب، فتكتمل بذلك إفاقتها. محظوظة عواطف، لأن مدرستها قريبة من السكن، فلن تقاتل الوقت، يكفيها ربع الساعة، لتذهب إليها مشيا، وتلك نعمة تدعو الله أن يديمها عليها. تتذكر عواطف كيف أن حنان رجعت ذات يوم من عملها، فوجدتها في الفراش نائمة بعمق. نادتها حنان، فنهضت عواطف فزعة، وهي تضرب صدرها، فقد وقعت الواقعة، و"راحت النومة عليها"، وفقدت يوما من رصيدها في "أيام غياب العارضة".

أمام المصعد واقفة "حنان"، وبجانبها ثلاث معلمات من الشقق المقابلة لها في سكنهن المشترك. يتابعن الضغط على زر المصعد، والذي حتما سيكون مشغولا، لتزاحم بقية الزميلات في طوابق البناية بأدوارها العشرة، وشققها التي تربو على الأربعين.

تحيات الصباح المعتادة المتبادلة بينهن، ثم يلوذن بسكون ناتج عن خبرة الحياة، حيث إن المسافات المتباعدة بين البشر أفضل من تقاربها، خاصة في مجتمع "هُنّ المغتربات"، واللائي يتعيشن على اجترار الحكايات، فالحكايات الجديدة، سيعاد إنتاجها في جلساتهن المسائية، أو عبر هواتفهن، فالأكثر إيلاما في الحياة ألا تجد المتسامرات وقودا من الحكايات يتخلصن به من روتين الحياة النمطية، فيتمدد بينهن الصمت المتبوع بالملل، لتنتهي الجلسة قبل أن تبدأ، ويزكم السأم ألسنتهن.

في وقفتهن ثم ركوبهن المصعد، تتلاقى عيونهن، فيختفي الابتسام، ويحل مكانه النظر إلى اللاشيء، أو يهربن إلى خواطرهن المختزنة عن فراق الأحبة في الأوطان، أو النظر إلى مستقبلٍ؛ يبدو مقاربا للحاضر إن لم يشابهه.

آثرتْ حنان تأمّلَ هيئتها في المرآة التي ملأت جدار المصعد والمواجهة لبابه. فضبطت حجابها، مانعة بروز أية خصلة من شعرها، وقد امتزج بأنفها عطور زميلاتها الواقفات بالمصعد.

***

واقفا ينظّف السيارات بخرقة قماشية؛ "شعبان" حارس البناية الصعيدي، "أبو مَلَك"، يعتز كثيرا باسم ابنته الكبرى، فيتكنّى بها، ويصرّ أن ينادينه به، إلى أن يرزقه الله بالولد، ولديه كذلك ابنة صغرى، رُزِق بها منذ عام، ووضع بهذه المناسبة صندوقا ممتلئا بالشكولاتة في مدخل البناية، داعيا كل المعلمات إلى الاحتفال معه، فكنّ يأكلن ويدعون له أن يؤاخي البنتين بالولد، وهو يؤمّن بالتمتمة، ثم يرد حامدا الله بأن الأنثى "رزقها واسع". تتطلع حنان له، وهو يكدّ بنشاط، متنقلا بين السيارات، ويجيب بصوت عال عن تساؤلات المعلمات المكررة عن نظافة السيارة، قبل أن ينطلقن بسياراتهن.

تستغرب حنان، فهو كثير الكلام عالي الصوت، حتى وهي في شقتها بالدور العاشر، تسمع صوته صاخبا في هاتفه النقال، في حواره اليومي مع زوجته وابنته أو مع أمه وإخوته في البلد أو مع أصحابه، وكم من مرة طلبت منه

تخفيض صوته، فتكتسي أَمارات وجهه بغضب، تقرأه حنان سريعا، فتعلل له نصيحتها، لأن الكل يسمع ما يقوله، خصوصا أن هؤلاء في النهاية نساء، وسيعرفن خصوصياته، فيقتنع، ويعدُها أن يفعل، وهي مدركة أنه هذا دأبه في الرد، وهو يردد مع نفسه أن هذا طبعه الذي لن يغيّره بالتطبع.

يوم شعبان يبدأ بعد الفجر، بكنس مدخل السكن، ثم غسل السيارات، في حرص منه على استمرار "المعلوم" الشهري الذي تدفعه المعلمات، ويظل مستمرا في عمله، حتى السابعة صباحا، خاصة في يوم الأحد مطلع الأسبوع، وعندما يتأكد من مغادرة غالبية السيارات الساحة الفسيحة المجاورة للعمارة، يعود إلى غرفته القابعة في الدور الأرضي وبجوارها "شَبرة" تعلو مترا عن الأرض، يرتقي سلمها الحديدي، ليتخذ موضعه على كرسي مرتفع، يُمكّنه من مراقبة الداخلات والخارجات، وأيضا التطلع لما فوق السور المحيط بالبناية، فيراقب الشارع نفسه، لعل هناك من تحدّثه نفسه، في أية ساعة من نهار أو ليل، فيتلصص على السكن النسائي، وثمة حوادث ومواقف يتكتمن عليها المعلمات ظاهرا، وتُروى بينهن سرا، عن شباب تفننوا في المعاكسات من فوق الأسطح، أو اعتلوا سياراتهم الجيب، وبعضهم من جنونه أحضر مكبر صوت ليخاطب حبيبته.

تخطت الساعة السادسة والنصف، عندما طالع أبو ملَك حنانَ، فسارع بإعمال منشفته على سيارتها: الزجاج والمقدمة والمرايا الجانبية، ثم انتقل إلى بقية هيكلها، أما حنان فقد تطلعت له سريعا مبتسمة، متمتمةً بالشكر، وهي تشغّل سيارتها بالريموت.

مزهوةٌ هي بسيارتها ذات اللون الرصاصي الفاتح، والتي أخرجتها من الوكالة منذ عامين، وتتباهى بأنها لا تزال بشمع الوكالة وأكياسها في المقاعد الخلفية. تتهادى بها من الشارع الفرعي، متجهة إلى الشارع الرئيسي، والمدارس تصطف على جانبيه، وقليل من الطلاب يغذّون السير لها، في هذه الساعة المبكرة. اتجهت نحو الدوار، ومنه إلى الطريق السريع. تستمتع بسهولة القيادة، ونعومة السيارة وهي تتهادى على الإسفلت، مؤثرة السرعة الهادئة نوعا، خوفا من مروق سيارات الجيب، أو اندفاعات حافلات المدارس، تحلم أن تقود سيارتها والتي حملت ماركة يابانية في مصر بعد أن تشحنها عند انتهاء عقدها. ذلك اليوم الذي تتساءل عن موعده، وكيف ستكون أحداثه؟ وهل يمكن أن تغادر غربتها التي أضحت رغم كل متاعبها سببا في رخائها المادي؟ يتكرر السؤال معها، أينما وحسبما اتفق وورِدَ على خاطرها، يحضر دوما في مكالماتها مع وليد، وهو يلحّ عليها بالعودة: "ماما، متى ستكونين بيننا دائما؟" تبتسم، وتحبس دمعات في مآقيها، وتسكت، فلم تعد إجاباتها تشبع غليل الابن. يسارع " وليد" بتغيير الموضوع، وهو يعلم أن سؤاله يفلت منه عفويا، عندما يشتكي لها أمرًا، وما أكثر ما يستجدّ في حياتهم، أو عندما يقارن بين حياته وحياة أصدقائه، حيث الأمهات حاضرات معهم، بأنفاسهن وتوجيهاتهن وحنوّهن.

أدرك الابن مبكرا سبب اغتراب أمه؛ سافرتْ من أجل علاج والده الذي احتاج مالاً كثيرا، ولا يزال؛ كانت أخته سمر مولودة، وكما حكت جدته بأنها كانت "قطعة حمراء"، فقد وُلِدتْ قبل سفر أمها بشهرين أو ثلاثة، وكان

على الجدة -والدة الأب- احتضان الطفلين، وقد أرتهما حدبًا وعطفًا ودلعًا لأنهما ابنا ولدها الوحيد. كلاهما ترعرع في كنف الجدة التي اعتادت تأمل حفيدها وليد وقامته تطول عاما بعد عام، حتى فاق الجدة طولا. أما سمر، فقد قارب جسدها على الاستدارة، واستطال شعرها الناعم وتمدد في ضفيرتين، تمشطهما جدتها بمهارة، ثم تعقفهما بشرائط ملونة، تبدّلها كل يوم، بناء على طلب الصغيرة، لتتباهى أمام زميلاتها.

دوما تشيد حنان بجدتهما الطيبة، وحواديتها الليلية، وطبخها اللذيذ، ربما لتخفي إلحاحهما المستمر كي تستقيل وتستقر معهما، وربما لتبرر حنان لنفسها أن الجدة تقوم بكل شيء، وما عليها إلا أن تواصل غربتها، لتؤمّن مستقبل ابنيها المادي، وربما.. وربما..، وهكذا تهمس لنفسها، وقد تدرّبت منذ أن خطت قدماها ثرى الكويت على أن تفكر بكل السبل، فلابد أن تعترف أن غربتها امتدت أعواما، وأكثر مما يجب، وبات ابناها لا يعرفان منها إلا الملابس الفاخرة، والإصدارات الأحدث من أجهزة الآي باد والتابلت، وذلك في زياراتها المتكررة في إجازتها منتصف العام أو نهاية العام؛ ومنذ لحظة نزولها في المطار، تجد الولد والبنت في انتظارها، لا يكتفون بالعناق، وإنما يتكلمون جميعهم طوال الطريق من المطار الذي يقع في أطراف الإسكندرية إلى حين وصولهم إلى البيت في وسط المدينة، يحكون في أصوات متداخلة، يضحكون معا، فالصمت عدوهم. وطوال إجازتها، تملأ حنان حياة "ولوودي، وسموورة" بالضحك والنكات، عندما يقتعدون سريرا واحدا، ليتحول حكيهم إلى عراك، ثم ضرب وقرص،

وأحيانا عض، فيرتفع صراخهم جميعا، ما بين مضروب يصرخ ألما، وضارب يصرخ متلذذا منتصرا، ولا يفرّقهم وقتها إلا رنين جرس الباب، حيث يأتي عامل توصيل الطلبات من المطعم، فيتحلقون من لحظتها حول الوجبة الدسمة، لتتحرك أفواههم التهاما وليس كلاما.

أمامها عشرون كيلو مترا، قبل الوصول إلى مدرستها، هناك في منطقة "أم الهيمان"، إلى الجنوب من العاصمة، يخيّل للمنطلق على الطريق أنه مستقيم، ولكن من يراه من علٍ، يلحظ تعرّجه بموازاة شاطئ الخليج، وإن بعد عنه نوعا ما، فالطريق يستوي مع استقامة الساحل، ويلتوي مع التواءاته، واصلا بين ضواحٍ مختلفة في المنطقة العاشرة، حتى يصل إلى أقصى الجنوب، عند الحدود ومنفذ الرقعي.

***

إنها في الطريق إلى مدرستها، والسيارات حولها، تنظر لساعة السيارة، تستغرب؛ الوقت يمر بطيئا قليلا، والذكريات تتمدد، ويتسع زمنها، والغريب أنها اعتادت استرجاعها كل يوم، بل إن الذكرى باتت مرتبطة بأمكنة الطريق ذاته، فعند إشارة مدينة الفحيحيل ستكون ذكرى لحظة ركوبها الطائرة، في المرة الأولى، وعند إشارة ميناء الشعيبة ستكون ذكرى لحظات وصولها عند المرة الأولى أيضا.

في سفرتها الأولى إلى الغربة، شاهدت الإسكندرية من علٍ، البحرَ والكورنيش والأبراج السكنية والقصور، وشاهدت أيضا قصري رأس التين، والمنتزه. بحثتْ طويلا عن بيوت أحبائها، ولكن عبثا أن تجدها في

هذا الزحام الهائل المتراص، والذي بدا مثل قطع البسكويت، حتى تلاشى مع العلو الشاهق، حين سبحت الطائرة في خضم الأفق: السحب البيضاء، والسماء فاتحة الزرقة، فلم يكن أمامها إلا أن تتناسى بكاء طفلتها، وهي متعلقة بها.

كتمتْ دمعها، فلا يزال بكاء الرضيعة سمر حيًا في أذنها، وبراءة عينيها الساهمتين يعتصر فؤادها، وقتها أصرّت حنان أن تظل محتضنةً سمر حتى لحظة صعودها إلى الطائرة. كان ذلك في مطار الإسكندرية في مبناه القديم.

عانقت رضيعتها طويلا، قبل أن تناولها للجدة التي ضمّتها لصدرها بحنو، ومن ثم ألقمتها بزازة الحليب، وسرعان ما تلقفت شفتا المولودة المنفرجتان الحلمةَ، مرتشفةً الحليب الصناعي ذا الرغوة، وكأنها تهيئ فمها لفراق طويل عن ثدي أمها، ثم استكانت لذراعي جدتها. شعرت حنان وقتئذ بطمأنينة نسبية فوليدتها في أحضان جدتها. التفتت إلى "وليد" بأعوامه التي تُعَدّ على أصابع اليد، متحسسة شعره الغزير. قبّلته طويلا، وهو صامت، ساهم. كانت حنان موقنة أنه إذا عاد إلى البيت، فلن يجد ماما التي تلاعبه، والتي تحلّ معه واجباته المدرسية.

حتى لو كانت الذكرى مفعمة بألم ودمع؛ إلا أن حنان تعودت كيف تهرب من أوجاعها، وتستعيد كل ما يبهجها، ويكفيها ذكرى أيام وصولها الأولى، عندما كان حليب صدرها ينزّ شوقا إلى الوليدة، حتى جفّ تدريجيا، مع جفاف حياة غربتها، وسنواتها المتراكمة فيها، ثم اتساع أحلامها أو بالأدق

مطامعها، ولابد أن تصارح نفسها، نعم لم تكن أحلاما، إنما كانت رغبات ثم مطامع، ثم شغف بالدينار.

يقينا، تعلم حنان معنى سقوط الإنسان في نهم المال، وكل ما يتعلق بافتراضات المستقبل، ويتحسب لتقلبات الزمن، وكيف تكون الرغبة حلما، وكيف يسوّغ العقل المسببات، حتى يساير هوى النفس. شفافيتها دأبها، فما أجمل أن نكون صرحاء مع ذواتنا! كي لا نصبغ أهواءنا بشعارات ظاهرها ورود، وجوفها أشواك.

خواطرها لا تنتهي، تتمتم بآيات قرآنية، تستعيدها من صوت مذياع السيارة الخافت والمضبوط على إذاعة القرآن الكريم، وهي تنحرف يسارا لتستوي على الطريق السريع، هذا الذي يمتد إلى الكويت العاصمة شمالا، ويستقيم جنوبا إلى الحدود، وهكذا قالوا، ولكنها لا تعرف فيه إلا مواضع قليلة، تختصر تحركاتها عليه.

تمرق السيارات حولها، فتلتزم الحارة اليمنى، تخاف من الحارتين: الوسطى واليسرى، تفضل أن تكون مع الحافلات الناقلات للطلاب والعمال، وليس مع الشاحنات التي تسير الهوينى، تئن لما تحمله، وتُتعِب من يتبعها، فلا مناص إلا الإفلات من إسارها، إذا صادفت ووجدت نفسها مضطرة للانحراف خلف شاحنة محملة أو فارغة.

في سرعتها، لا تتخطى ثمانين الكيلو متر غالبا، حتى وإن رأت الطرق فارغة، وندرت السيارات من حولها، فإنها تستشعر الأمان أكثر، عندما

ترى كثيرين مثلها، في الحارة اليمنى، لن يمرق من جانبها معتوه بسيارته، يتباهى بانطلاقته.

يقطع هدوءها النفسي وأفكارها المشتتة أو بالأحرى تداعيات الذكريات وأحلام الأمنيات؛ انتباهها إلى بوق سيارة زميلتها في المدرسة، الأردنية "حلا"، ضحكت كلتاهما، عندما تلاقت عيونهما، فحلا تسلك الحارة اليسرى، لا تعرف إلا السرعة القصوى، وقد داعبت "حنان" بإشارة ساخرة بيدها، لأنها اللائذة بالحارة اليمنى.

تتوقع حنان أن "حلا" إذا لقيتها في ردهات المدرسة، ستضحك قائلة بكلمات سريعة، وبنطق فصيح:

- الأفضل لك أيتها الجبانة هو حارة الأمان، شريطة أن تكون الطريق خالية، كي تسيرين وحيدة، وساعتها تتفاخرين بذاتك، أيتها البطلة، وأنت تقودين سيارتك بسرعة السلحفاة.

وسترد حنان عليها ساخرة، وتتوقف لتبادلها الحديث:

- -وأنت لا تنفعك إلا سيارة سباق، تجرين بها في الصحراء، لعلك تشبعين سرعةً.

ترد عليها حلا بثقة وتحدٍ وبكلمات مختارة بعناية:

- أتمنى أن أصعد الجبال وأداعب السحاب، وأنزل الوديان وأسابق الذئاب.

تمتدحها حنان وكأنها تلقي شعرا:

– سيدتي أنت أيتها الجميلة؛ على كل هذه البلاغة والفصاحة!

بلهجة مصرية مصطنعة بإحكام، تجيب حلا:

– أنا بليغة يا معلمة اللغة العربية، مع "شوية" حداقة على فهلوة.

ضحكات صافية بينهما، ثم ينتهي اللقاء الذي لم يستغرق إلا هنيهات الوقت؛ فـ "حلا" لا تعرف استكانة، تظل طوال اليوم راكضة بين أقسام المدرسة، فهي معلمة "حاسوب"، ولذا، فإن طلبات الإدارة منها لا تنقطع، وأولها إلحاح مديرة المدرسة فتتصل بها كل بضع دقائق، على هاتفها النقال؛ لأن حلا هي المسؤولة هي عن كل الأوراق المطبوعة، وكذلك التي ستطبع، وأيضا المؤرشفة، بالإضافة إلى الضائعة والمفقودة. وهكذا تحكي حلا للمعلمات المصريات، حينما تأتي للجلوس معهن، فيحتسين الشاي في أكواب ورقية، وتتعمد حلا إزالة فتيلته سريعا، قبل أن يشتد سواده، ويثقل طعمه ويُمَرَّر، ثم تعلّق وهي تتأكد من كم السكر في كوبها:

– عجبي عليكم يا أهل مصر تعشقون الشاي الحبر المرّ.

وتسارع حنان بالرد عليها، لأنها دائمة شريكتهن في مجالس الشاي:

– -هذه شخصيتك يا حلا: تنطيط وكلام، لو سكتِ تصابين بجلطة.

لا ترد عليها حلا، إلا بقرصة في ذراعها، تتحملها حنان، في تحد نسائي وصمود.

❊ ❊ ❊

(٢)

- " البنت الدلوعة، جمال ونسب وأنوثة".

هكذا كانت تردد أمي، عندما تنظر لي وأنا أتهيأ لمغادرة المنزل، لكلية الآداب في جامعة الإسكندرية، ولأنني كبرى أولادها، تمسكت أمي بكنيتها الأولى "أم حنان"، على الرغم من وجود أخي "حسين"، الذي يصغرني بعامين، تلته بسنوات خمسٍ أختي "منى". أما أبي فكنيته على ابنه الوحيد. وهو ما يناديه به سكان عمارتنا، فالأمهات والبنات يعرّفن شقتنا باسم "أم حنان"، وبه تسمع نداءات الأطفال على السلالم، عندما يأتون لأمي الحنونة، التي توزع عليهم حلوياتها المصنوعة في المنزل، وتربت على شعورهم وتدعو لهم. أما الرجال فيحتشمون، عندما يشيرون إلى شقتنا، مشيرين إلى أنه بيت "أبي حسين"، في الطابق الثالث من العمارة.

ترنو لي أمي، تبسمل وتحوقل، وقد استكملتُ مكياجي، وشعري مسترسلا على ظهري، واتسقت ألوان الحقيبة والحذاء والفستان. أعرف أنها تضغط عليّ منذ سنوات لأتحجب، وأقنعتْ بذلك أختي الصغرى، فأخبرتُها أنه قرار مؤجل. نظرتُ إلى المرآة التي تقبع في ظهر باب الشقة، وتأملت جمال وجهي، وأناقة هيئتي.

قبيل مغادرتي، احتضنتُ أمي التي أكملتْ ثيابها، متهيئة للذهاب إلى عملها كمعلمةً في مدرسة قريبة من البيت. وكالعادة تخاصم ماما المكياج،

فتحكمُ لفّ طرحتها، فيبدو وجهها رائقا صافيا. ستغدو إلى مدرستها بمشيتها الوئيدة، وكعادتها تبتسم للصغار وهم في طريقهم إلى مدارسهم، وتداعب شعورهم إذا قاربتهم.

ورثتُ عن أمي شعرها، وكثيرا من تقاطيع الوجه، وأخذت عن أبي الطولَ والعيون، أما قوامي فمختلف، وكما قيل لي في جلسات نسوة العائلة: " فيكِ الجمال المصري، الوجه المسمسم، والجسدي الملآن دون سمنة". تصنعتُ الحياء أمام من قالت لي، وإن كنت أتوقع مثل هذا منها، فهي سيدة نحيفة، متوسطة الجمال. تطلعتُ لأمي وقتها، فوجدتُها كعادتها، تحرّك شفتيها متمتمة بأدعية وأذكار.

دوما كنتُ أقول لأمي: " ماما، أنت لست مثل النساء".

فتستغرب من مقولتي، فأعلل لها وأفصل على عادتي في إطالة الكلام، وأوضح لها علامات شخصيتها: تديّنها، رضاها، قناعتها، طيبتها المتدفقة عطفا.

وأؤكد: " تنطقين بالكلام القليل، ولا ترددين حكايات النسوة!؟".

تضحك أمي، بعدما عددت لها مواقف وشخصيات؛ اشتقت أنا وأختي لسماع تفصيلات عنها، وفقا لطباع البنات، ونطمع أحيانا أن نعرف بعض المعلومات التي تنير عقولنا، عن فلانة أو علّانة، من جماعات هنّ اللائي يأتين إلينا أو تذهب أمي لهن، ولكن أمي كانت تؤثر أن تعطي وصفا لها، ثم خبرا قصيرا، وعندما نلح عليها، تروي بإيجاز ما حدث، وهي

تضحك ملء وجهها الأبيض، بملامحه الجميلة الهادئة. والعجيب – كما نقول لها- أنها تستمع منا دون كلل، وإن حكينا لساعات.

***

أترجلُ على سلالم العمارة وكأنني أقفز للأسفل، لا أكترث للجيران، ولا الماشين في الشوارع، ربما أشعر بالتيه، حتما فهناك عشرات العيون ترمقني، بعضها يختلس، وكثيرون يبقون نظراتهم للأمام، وأنا أتطلع إلى كل شيء، إلا أن تسقط عيني على أحدهم، فلابد أن هناك من يحلم بأن تلتقي عيوننا، ليسبح في أحلام اليقظة والتي ستتواصل معه إلى المنام، وقد يخيّل إليه أنها بداية حب، فيترقبني كل صباح.

تلك خبراتي الأنثوية، منذ استدارة عودي، وسماعي لنغم دبيب أقدامي في الشوارع، وكلمات المعاكسة التي طاردتني بها ألسنة الشباب.

ترن في أذنيّ تحذيراتُ أمي من الرجال، بل وتطغى على كلمات الغزل الملقاة مجانا على مسامعي. علمتُ بعدها من صديقاتي أنها قاموس متكرر، تتوارثنه الأمهات عن الجدات، لا يتغير مع الأزمنة ولا الأمكنة، لأنه مرتبط بالأنثى التي هي مطمع للرجال؛ متى قالت، وأينما سارت، مثلما هو مرتبط بالأمهات، تلقنّه لبناتهن.

وثمة قاموس آخر مغاير، حاد في كلماته، خشن في نغمه، ألا وهو قاموس الآباء، ومعه أيضا الإخوة الذكور، وكأن الجميع مسلط على البنت؛ يخيفها لأنه يخاف عليها، ويحذرها ولا يعرف مدى لؤمها ولا التوائها.

أسلكُ الشارع الرئيسي المرصوف الممتد، تحفّه أشجار على الجانبين؛ ترتخي أغصانها وتملأ أوراقها المتساقطة جانبي الشارع، بأوراق خضراء، تتفتت من عيدانها، فتجف مصفرّة، وسرعان ما تتفتت. ألاحظها يوما بعد يوم، في دوامة سرمدية: أوراق خضراء متساقطة، ثم صفراء متجمعة، ثم مفتتة متناثرة.

صار بيني وبين هذا الشارع ألفةٌ كبيرة، بأشجاره وأوراقه وضجيجه وسكونه. ويقال إنه شارع مؤَسَّس منذ أيام الإسكندر الأكبر، عندما خطَّطَ الإسكندرية، وجعل شوارعها مستقيمة، تمتد طوليا وتتقاطع أفقيا، ليكون الكورنيش منتهاها، مثلما هو مبدؤها.

تلك مرويات يعتز بها أهل الإسكندرية، والمقصود تحديدا أهل بحري، القاطنون في وسط المدينة العتيق، في حي الأنفوشي وما حوله، المتباهون لكونهم إسكندريين أصلاء، يميزون أنفسهم عن الوافدين الدخلاء، الذين تقاطروا على الثغر، للعمل في الميناء أو في الصيد، وملأوا أطراف المدينة، وتوغلوا أيضا في أحيائها القديمة.

وصلتُ إلى محطة الترام، القطارات العتيقة، بلونها الأزرق وقد رأيتُها زاهية يوما، ولكن أثّرت فيها عوامل التعرية البحرية: الهواء المشبع برذاذ البحر، والرياح القوية العاصفة، التي تطيّر الرذاذ، فتضرب به واجهات المباني، فازدانت بالرطوبة.

أقف في المحطة، أنتظر القطار القادم، سيصل بعد دقائق، أدرت ظهري، أستنشق نسمات الهواء، التي اجتمعت لتطيّر جدائلي المتحدرة على ظهري.

سأعرف وصوله عندما يتعالى اصطكاك ذراع الترام العلوي بأسلاك الكهربائي، فيتولد الشرر الناري، ثم يتباطأ حتى يقف أمام المحطة، وتتسارع الأرجل وتتزاحم الأجساد، أما أنا فأعرف أين أقف، بالقرب من الباب، فأكون آخر الراكبين، وأول النازلين على الرصيف، وأكون جانب النافذة، أرقب الشوارع المتسارعة في ناظري، وأبعد محجري عينيّ عمن يحاول أن يجد فيهما ملاذا للتلاقي ثم التأمل ثم..، خاصة طلاب الجامعة والثانوي.

أصلُ " الشاطبي"، البحر يواجه مبنى الجامعة، وتأتينا أصوات الأمواج في تتابعها على الرمال، حركتها سرمدية، ما دام هناك بحر، فالرياح تحرّك أمواجه، فتضرب الشاطئ، مرات بقوة نسمع صخبها، وتلفح وجوهنا هواؤها، ومرات تداعبه فيأتينا الهواء نسيما عليلا واهنا، وأحيانا بلا نسيم، لنعلم أن الموج يغازل الرمال فقط.

الشوارع مبتلة ببقايا أمطار مسائية، والسماء بالغيوم ملبدة، والشمس أجّلت طلّتها، واكتفت بضوء تحدى الغيم في مواضع وتسرب منه، وثمة برودة تعانق الوجوه، وتُنعش الأنوف، وتبقي في الخدود بعضا من الندى المعبق برائحة الموج.

تلك مدينتي في الشتاء، سرٌ لا يعرفه إلا أهلها، أما المصطافون فيحيلون مدينتنا ضجيجا، يمتزج بحرارة الصيف، التي تشتد كلما توغلنا بعيدا عن البحر، مما يدفعنا-نحن أهلها-لنلوذ بشواطئ الساحل الشمالي، بعيدا عنها. وهكذا، اعتدت أنا وأسرتي، امبراطورية الخمسة- لأن عددنا خمسة-؛ بأن

يكون شتاؤنا إسكندرانيا، وصيفنا سواحليا، وأحيانا نغادرها إلى مرسى مطروح، أملا في بحر يفيض بصفاء الموج، ملتمسين رمالا ناعمة، وأصواتا هامسة، وبشرا أقل، ولعلنا نستطعم شدو فيروز:

شط إسكندرية يا شـط الهـوى رحنـا إسـكندرية..رمانا الهـوى
يـا دنيـا هنيـة و ليـالي رضـية أحملها بعينيّ.. شـط إسـكندرية

***

إنه الشاطبي وفيه الجامعة وصخب الكلية، والأنظار مصوبة نحوي، وأنا الهوينى أسير على أرض الكلية الإسفلتية، يتصنّعُ الشباب التقارب مني، وما أكثر ما يسوقون من حجج وأسباب: أحاديث المذكرات، وتغيّب الأساتذة أو حضورهم، أتلقاهم بابتسامة ثابتة تقريبا، ليست مصطنعة أو متكلفة؛ استعرتُها من أمي، ابتسامة عنوانها الترحاب، مع نظرات تنأى عن الوجوه، وتتفادى الأحداق. أتجاهل غيرةً أراها في عيون زميلاتي، وهن بدورهن لا يخفين مشاعرهن، فيبُحْنَ بمكنون قلوبهن همسا بكلمات بعض الأغاني:

" انزل يا جميل الساحة، واتمخطر كده بالراحة"

أضحك، وأرد عليهن بكلمات لعمرو دياب، مطرب جيلنا، حيث التصفيق والقفز وموسيقى الرقص:

"الحسن ربّاني، زيك مفيش تاني، زيك وفين ألقاه، الله الله الله"

صوتي رخيم وبه غنج، فأغيظهن، وأتعمد المزيد. فيتجمع الشباب حولنا، يتجاوبون معي، تصفيقا وصفيرا، وتتحول الجلسة إلى حلقة غناء وضحك.

ما أحلاها من أيام! الظرف والأنس عنوانها، تعلمتُ منها خبرات الجامعة، التي يمكن أن تجدها عند كل من عاشها، وتلك هي المشكلة، نتباهى بتجارب متشابهة، ونحكي قصصا متكررة، لا يحتكرها جيلٌ واحد، فقد سمعتُها من أبي ثم أختي؛ ما يجعلني أقول بكل ثقة: إن الجامعة تؤطرنا بأسوارها، وتفرض علينا منطقها، وتلزمنا بسلوكيات ومواقف متوالية؛ بتوالي دفعاتها وأجيالها.

***

ها أنا في السنة الرابعة، هل فكرتُ في الحب؟ ذلك الاستفهام الذي تساءلته، وأنا أستعد لمغادرة حياة الانفتاح والانطلاق والرحلات. ما سبب هذا السؤال؟ لا أدري، ربما يكون تأثرا بأفلام السينما، التي نقلت إلينا الحب في الجامعة كأنه قدر لا مفرّ منه. فنحن جيل أفلام "عبد الحليم"، عندما وقف وبجانبه طلاب الجامعة، ينقر بأنامله على طاولة في أحد مدرجات الجامعة، ويغني: "وحياة قلبي وأفراحه، وهناه في مساه وصباحه، ده مفيش فرحان في الدنيا، زي الفرحان بنجاحه"، مشهد علق في أعماقنا: الشاب الوسيم، ذو الشعر المسترسل، والسمرة الفاتحة، والصوت العذب، ومن ورائه قصة حب، قد نبتت واستوت وأينعت، وحان قطافها في سنة التخرج.

وهكذا، انبثق السؤال بقوة، بالطبع ليست المرة الأولى، ولن تكون الأخيرة، فأي أنثى تحلم بمستقبل وردي مع من يسمونه فتى الأحلام، وأعلم تمام العلم أن الفارس المزعوم لم يأت لمن سبقنا، ولن يأتي لنا،

وسننقل هذا لأولادنا، الذين سيأتون بعد زواج حسب القسمة والنصيب، كما تقول أمي، وهي تنسف مقولات المسلسلات وشعارات الأفلام، خاصة أفلام المرأة الجديدة، المتعلمة المثقفة، التي تقف فيها البطلة تخطبُ عن تحرر المرأة، وإرادتها، واختيارها للشريك المناسب. تقول أمي ضاحكة:

- حتى الحب قسمة ونصيب. وتردف موضحة:
- سبحان من يؤلف القلوب، ويجمعها بالمودة.

أشعر أن قلبي كان مغيبا، ربما يكون كما تصفني زميلاتي بالغرور والتعالي، وربما يكون ثقة مني بأنني الأجمل، وحتما سيأتي فارس الأحلام، الذي– وبكل أمانة ومصداقية- لا شكل له عندي، ولا سمات، لم تنطبق على أي شاب ممن عرفتُهم.

كثيرون أحبوني، وصاغوا مشاعرهم ما بين تلميح أو تصريح، وقالوا إنها جياشة؛ وبقية مفردات القاموس المعروف، القادم من عالم الأنهار والبحار والأمراض القلبية، وأيضا ذكروا أصنافا من الأدوية، منها البلسم والترياق والمسكنات والمهدئات. فأضحك بـ "ملء شدقيّ" كما يقول البلغاء؛ على من همس تصريحا بأن أحاسيسه فوارة، أو على الزميل الآخر الذي قال إنها فياضة، فأقول لهما- طبعا كل على حدة- وبصراحة نفسية مطلقة، ومتلذذة بداعي الثقة في ذاتي:

- خليها تفور أو تفيض؛ ربما تغرقك، وترحم البشرية منك.

الغريب، أن كلا منهما، وعلى حدة أيضا، انفجرا ضاحكينِ، وانتبهتُ في كل مرة، أن ردي بالفعل يثير الضحك، على الرغم من جديتي الشديدة التي أبديها وأنا أتحدث.

كانت مواقفي معهم –عادة- نابعة من تراكم خبرتي الأنثوية الضاربة لسنوات منذ سنواتي الأولى في المرحلة الإعدادية، حيث أحيل ملامح وجهي جمودا، ثم أنسلّ من أمامهم دون رد، بينما يظلون هم محنطين في وقفاتهم، قد يضحكون، ولكن وصلتهم الرسالة بقوة: ليكن خيالكم مشتعلا مع غيري، فأنا كالفولاذ عصية.

ثم أمضي في طريقي، وأضطر لأن أروي لمن تقابلني من صديقاتي المقربات الموقف، لأنني غير قادرة على كتمان سخريتي، عندما أقهرهم بالضربة القاضية، فأحكي للصديقة، وأنا غارقة في الضحك:

- -مسكين فلان، انضم إلى قائمة المومياوات، ادعي له بالرحمة.

تدرك الصديقة مدلول المومياوات، وأن الحبيب المزعوم سيظل أياما، وربما أسابيع؛ في حالة نفسية سيئة: تنبت ذقنه، ويتهدل شعره، وتزوغ نظراته، وينحف جسمه، ويصفرّ وجهه، ويتغيب عن الكلية. فإذا حضر، يلتف زملاؤه حوله، مستفسرين عن سبب مرضه، فيلوذ هو بالصمت، غير قادر على البوح، فلسانه متجمد أسفل حنكه.

وحتما سيتعمد أن أراه أنا بهذا الشكل، لأعلم أن حبه حقيقي، وليس تمثيلية معروفة أحداثها، منذ بدايتها وإلى منتهاها؛ فكل العشاق وبلا

استثناء، يعلمون أن الأنثى تتثاقل على من أحبّها، وتستفيد من الحكمة المتوارثة " الثقل صنعة ".

أرمقُه مبتسمة وهو يجلس وحيدا في نهاية المدرج؛ يستدرّ شفقتي، التي لن تتحقق، ويرسل النظرات لي، وأنا أصف حاله لزميلتي التي بجواري، فتتأمله ضاحكة.

بقية السيناريو معروفة، فإن الزميل العاشق، سيعود أكثر أناقة، ويبحث عن حبيبة أخرى، وسيجد بلا شك، فمنهن مَن يعرفن أن الحب تجربة؛ قد تنجح وتختار شريك حياتها: شابا وسيما من أسرة ميسورة، أو قد تفشل وتكون خبرة مضافة لها، وفي جميع الأحوال؛ أشبعتْ غرورها الأنثوي، بأن هناك مَن بكى صبابةً من أجلها، وتلوّى ليلا في سهاده متذكرًا حبها، وحبذا لو كان أكثر من حبيب، لتفاضل بينهم، وتشبع نرجسيتها.

هذا المومياء وأشباهه، سينتشر خبره سريعا، ليكون مثارا للتندر في دفعتنا الجامعية، وغالبا ما يكون من الطلاب الساذجين، الذين يرون الجامعة بمعايير التلفزيون، حيث الحب والأصابع المتلاقية، والبنت الخجلى في نظراتها، والولد الجريء، الذي نسميه بالبلدي " الفتِك والجَدَع"، لأن هناك أولادا لديهم تجارب سابقة إما في المرحلة الثانوية، أو في حب النوافذ والشرفات، ولقاءات الأسطح والنواصي، وهؤلاء يعرفون مقدما طباع الأنثى إن رغبت في الإعجاب أو الحب أو الصداقة.

وللأمانة هؤلاء الذين ينجحون في تعليق عدة بنات، هم بارعون في فن الكلام والتسلية، والقفشات والضحكات، كما يتزعمون الأسر الطلابية،

ولا نراهم إلا مع شلة تجمع الجميلات والوسيمين، ظاهر الشلة: ضحك ومرح، وباطنها مشاريع حب مكتومة، قد تصيب أسهمها، فتصبح قصة حب يحكون عنها، وقد تموت سريعا فتصبح معدومة.

ولكن للأمانة، فإن كثيرا ممن تماهوا عشقا في جمالي؛ كانوا من كليات أخرى، تشترك معنا في الحرم الجامعي، وتستقل كل كلية بمبناها. وهذا ذكاء منهم، حيث سيختفون حتما، وسيدخلون كلياتهم من بوابات الجامعة الأخرى، واثقين أن الذاكرة الشبابية سمكية، فيها الجديد كل يوم، بطلاب مستجدين، وآخرين متخرجين، وعلى كل حال؛ فإن الوجوه متغيرة، والملامح متشابهة، والمواقف مكررة.

***

أعرف نفسي جيدا، متمردة أنا، لذا أتحاشى الردود التقليدية للبنات، عندما يصارحني أحدهم بالحب، ويعلن الجدية وعزمه على الارتباط بي رسميا، سواء الآن، أو بعد التخرج، فساعتها لا أتفوه مثلا بأنني لا أفكر في الموضوع، أو يحمرّ وجهي، أو أخفض عيني وأطرق رأسي، والكسوف عنوان ملامحي، أو أركض مسرعة دون رد، أو أقول لهم: "تفضّلْ بالبيت، وقابلْ بابا". أو أهدده بالشكوى لإدارة الكلية؛ أو الأمن بأنه يعاكسني، أو أهدده بأخي الذي سيأتي ليؤدبه وسط الشباب.

كلها ردود متواترة في قصص البنات، التي قرأتها في روايات "عبير" الرومانسية، أو سمعتها مرات ومرات. فذاك هو الموضوع الآسر عند زميلاتي في الكلية، حينما يجلسن في المدرجات، ويخترن " البنشات"

الخلفية، فيختفين وراء عشرات الرؤوس التي تبدو للناظر من أعلى المدرج، كأنها كتلة متلاصقة، تنظر للأمام حيث يقبع المحاضر على مكتبه. تتهامس البنات بالحكايات، وهن يستترن بحقائبهن، بينما الدكتور المحاضر غارق في مذكراته التي ينظر فيها، ثم يشرح مسهبا، وسط استفهامات –بلا جواب- من الآذان السامعة له، عن الجديد الذي يضيفه على المكتوب.

وقد أراهن منتحيات تحت الأشجار، أو على مقاعد الكلية المنتشرة حول مبناها. يحكين عن هذا وذاك الولهان، الذي يطاردهن. أعرف أن الكلام إما كذبًا أو مبالغة، فجلّهنّ لا يتنافسن في الحب، لأنهن يعلمن جيدًا، أن الحب شيء، والدنيا والزواج شيء آخر؛ وإنما يتنافسن فيمن يركض خلفهن، معجبا أو متيما، ناهيك عن الدكاترة، الذين يتصابون أمام الناهدات والمتنهدات من الطالبات، ذواتِ العيون المكحولة والأهداب المسبَّلَة.

تلك هي الأنثى التي خبرتُها، تتمنع إن رغبوا، وترغب إن تمنعوا.

***

أحدهم غنّى لي ذات مرة: "حبك نار" كاملة، منغمة مع موسيقى شفهية، يصفرها بشفتيه أو يدندن بها، وهو يطيل في " وآاااه يا حبيبي بحبك.. ". ساعتها، كنت جالسة أقرأ في كتاب، على أحد المقاعد الخشبية خلف مبنى الكلية. جاءني المطرب الشاب، وكان من الشلة التي ذهبت معنا في رحلة إلى مدينة رشيد، كان واثقا من نفسه، ربما تشجع بسبب مشاركتي في الغناء

مع الشلة، وتبسّطي في الكلام، وقد كان نجما في الأوتوبيس، وفي سمرنا المسائي، يغني ونحن نتجاوب معه.

أخبرني أنه سيتقدم لمسابقة المطربين الشباب، فقلت له: "غني يا وحيد"، فسارع بالغناء، وأنصتُّ له بداية، ثم تشاغلتُ بتقليب صفحات الكتاب، وقد أدركت الرسالة منذ الكلمات الأولى. انتهى المطرب، وتطلع لي منتظرًا رأيي، فقلت بلا اكتراث:

- الأفضل يا عزيزي أن تغني أغنية:

حبيبها.. لست وحدك حبيبها،

حبيبها أنا قبلك، وربما كنت بعدك،

وربما كنت مثلك.. حبيبها.

فَهِمَ المغزى، ويبدو أنه أراد تجريب حظه، لعله يكون الوحيد الذي نال الحظوة مني.

حييتُه بانحناءة رأسي، وعدت إلى صفحات الكتاب، الذي تناول الحب العذري في قبائل الحجاز ونجد. غادرني، وهو يجر قدميه مضطربا، ليدخل مبنى الكلية الخالي من الطلاب والأساتذة، ربما ليبكي أو يخفي تبخر الدماء من وجهه.

بعضهم صمموا على التقرب مني، بعدما لمّحوا بإشارات ورسائل متعددة الأشكال، فأتوني بقصائد مسطور فيها اسمي، وتفننوا في إيصالها، إما في دفتر

المحاضرات، أو في أوراق التصوير المهداة. وهناك من أهداني لوحات كرتونية، مرسومة بها ملامحي، من زوايا مختلفة، وخصلات شعري منسدلة على وجهي، أو متطايرة في الهواء، ووجهي نفسه سابح في السماء، ويحلفون– كلٌ على حدة- أنها من إبداع خيالهم، في وحدتهم الليلية، حينما يستحضرون صورتي، فتجري أقلامهم الجافة أو الملونة بما شكلته أفئدتهم. كلام ملتهب، أشبه بغناء أم كلثوم، الذي يشجينا كثيرا، ثم يزول مفعوله، عندما نضع رؤوسنا على المخدة، بعد ليلة من الطرب.

وهكذا، يترنم العاشق الشاعر باسمي، حتى تنبت القصيدة وتسمق بي، والحبيب الرسام يخطّ فيجد خطوطه ترسم وجهي وجسدي الفائر، وفي كل مرة عندما يأتون بما أبدعوا، يرتسم وجهي غضبا، وتقدح عيناي شررا، وأستهدي بحاستي الأنثوية الفطرية، مدعومة بخبراتي المكتسبة، وطبعا بنصائح أمي التي تصبها في أذني أنا وأختي، وتختصرها ساخرة في أغنية أم كلثوم: "حب إيه اللي أنت جاي تقول عليه".

لقد عرفت قصص الحب التي بدأت وانتهت، داخل أسوار الجامعة، وقليل منها إن لم يكن نادرًا- ما تخطّى الأسوار، وذهب الحبيب الولهان إلى بيت الحبيبة، مرتديا بذلة أنيقة، ومعه والده، متشجعًا بكلمات المؤازرة من أهله، بعدما رأوه ثملا، قد أضناه العشق والسهر، فحافظوا على ابنهم، ولا بأس من نجاح قصة حب.

وها هي ثمرة الحب. الحبيبان المفترضان والخطيبان المرتبطان "علي وناهد"، نراهما متلازمينِ، وقد ازدانت اليد اليمنى لكل منهما بدبلة الخطوبة،

يتباهيان بالشرعية الجديدة التي هي حلم كل شاب وفتاة، أن يلتقيا ويتضاحكا ويتسامرا، وهناك عشرات العيون تتابعهما، فلا حرج أن يظلا معًا طوال اليوم، يتمشيان في ردهات الكلية، أو ينتحيان جانب أعمدتها، أو يكونا جالسينِ متجاورين أثناء ثم بعد انتهاء المحاضرة، فلن يُعتَب عليهما من موظفي الكلية أو الحرس الجامعي، ولن يشنّع أو يرمي عليهما بالكلام من الشباب أو البنات، بل إن الخطيب الحبيب "علي" ينظر شذرا إلى زملائه الطلاب، هؤلاء المكتفون بحب الظل، أو الحب الهامس، أو الحب السارق، أما هو؛ فالظروف مواتية له، فتقدّم وخطب، وارتسم المستقبل زهورا أمامه، مع فتاة فاتنة، التقطها مبكرا، واختارها من بين العشرات من جميلات الجامعة.

على الجانب الآخر، فإن كلا الخطيبين لا يغيبان عن جلساتنا النسائية في الكلية على النجيل الأخضر، وقد أظلّتنا شجرة الكافور العجوز، التي تدلت علينا بأغصانها العتيقة شبه الجافة، وإن ظلت أوراقها خضراء يانعة.

نتهامس عنهما ونحن متعجبات؛ مسكين هذا الخاطب، الذي تقع عليه مسؤولية الإفطار والغداء للخطيبة، وعليه أيضا أن يُسمِعَها الكلام الحلو الحالم بمستقبلهما، ويحكي لها كل يوم عن الجديد في الحياة المخملية التي تنتظرهما.

إن همساتنا ليست حسدا لفعل الخطوبة ذاته، فمن الوارد جدا -في توقعاتنا المرئية- فسخها بعد شهور، وربما قبل الامتحانات، وإنما نتعجب لأن الخطوبة تجعل الخطيبة ملتصقة به، تحاسبه على الحركة والنظرة

والإيماءة، وتقيم الدنيا وتنصبها على وتد واحد؛ عندما ترى العروسُ خطيبها يحادث إحدى زميلاتها.

وبالطبع سنسمع بعضا من صراخها عندما تضبطه متلبسا، وهو ينظر مصادفة لطالبة، أو يرد مضطرا على استفسار من أخرى، وقد يحدث – وهذا قد تم بالفعل- أن تدخلت إحدى الزميلات الغيورات، وسممت أجواء الخطوبة، وجعلت صراخ الخطيبة يُسمَع من المدرَّج، وهي تعاتب خطيبها أن سمح لنفسه أن يحادث هذه الفتاة وحدهما، وعبثا يحاول الخطيب أن يهدئها، ويخفض من عنفوان ثورتها، مؤكدا أن الفتاة هي التي جاءته، وهي التي انتحت به جانبا، وكان هو مُحرَجا منها، فاضطر لمجاراتها، ولكن هيهات!

ورويدا رويدا، ستنضب الأحلام، ويقلّ الكلام، ويكثر الملام، وتصبح هناك أسباب ومسببات لفسخ الخطبة من الجانبين في السنة الرابعة، وقبيل التخرج، لتكون النتيجة أن يمسك الخاطب شهادة الليسانس بيد، ويخلع دبلة الخطوبة المشؤومة من يده الأخرى، ويفكر في الزواج بالطريقة التقليدية، لاعنا الحب و"سنينه".

***

بحكم فضولي الدائم، والذي أراه عاديًا بالنظر إلى مجتمع هنّ، فإن جميع قصص الحب أعرفها عن قرب، وكثيرات حكين لي بالتفصيل، وعرفت من خلالها شخصيات العشاق: الجاد، والساذج، والرقيق، والممثل، والطموح، والحالم.

وتكون كارثة الكوارث أن يحوم حولي واحد من هؤلاء، ملمّحًا لصبابته التي توتره نهارا، وتؤرّقه ليلاً، فيكون ردي مفحمًا، وأذكّره بعلاقاته الفاشلة مثل شخصه القميء، مع فلانة وعلّانة، وإذا جادلني، مقسمًا أنهن لا يستحقّنه، وأنه وجد فيّ كل ما حلم به؛ سأطيل وقفتي معه دقائق، وأعطيه أطرافًا من أخبار، يمكن أن يقول إنها عناوين، وهو حتما يعرف بقية الخبر، عن متاجرته بعواطف البنات الساذجات، خاصة القادمات من الريف، القاطنات في المدينة الجامعية، وكل معلوماتهن عن الحب من المسلسلات المذاعة في سنوات التسعينيات، حيث الحبيبان يواجهان المشكلات بعزيمة، وينتصران لحبهما في النهاية السعيدة.

بعض ممن أحبوني صدقوا، وهكذا قالوا لي ونحن في السنة الرابعة، وقد تقاربت أيام الامتحانات، وعندما استفسرت من زميلي "حسام"، وقد كان محايدا بشكل كبير، يعني لم يسقط في غرامي، ولم يحاول، بل فَهِمَني منذ السنة الأولى، فكانت علاقتنا حيادية، نقاش ومصارحة، دون أي توغل من جانبه، أو أي تقرب من جانبي، طالما تحاورنا وتناقشنا، ولكن لا أذكر أنني لمست فيه نظرات الهيام أو تلميحات العشاق.

أخبرني حسام عن آخرين ممن أحبوني، وذكر أسماءهم، أحسست بذاتي تتضخم، فالمتيمون بي كثيرون، مثلي مثل كل البنات، أرغب فيمن يعجب بي.

عدت أسأله عن سبب عدم مصارحتهم لي، نظر لي حسام بلطف، وبدا هادئا، بل باردا، فلم يركبه عفريت الحب، ولم تلمسه جِنّيّة العشق

بعصاها، وهكذا دلّت عيناه فلا يتمعّن في قسمات جمالي ولا أعماق عيوني، بل يصرف نظره بعيدا، فيقول:

- هم يا حنان يخشون من سطوتك، ومن لسانك الذي لا يرحم.

ضحكت كثيرا، وسألته:

- وأنت يا حسام، ألم تحاول؟ أو تفكّر؟

لم يفاجئه السؤال، فقال وكأنه متوقعه:

- -أنت زهرة السور العالي..، سور الجامعة طبعا.

لم أستغرب من تشبيهه المذكور، فهو ليس بشاعر، ولا يقرأ شعرا أو نثرا، فهذا عنوان مسلسل مشهور كان يبثّه التلفزيون المصري في نهاية الثمانينيات. فرددت عليه:

- يا رجل، قل غير هذا.

تطلع حسام إليّ بوسامة وجهه، وشعره الغزير وقال:

- -بصراحة، خفتُ تقطيبة وجهك، والتي ستدوم إلى نهاية العام، ففضلت أن نكون زملاء، ولسنا أعداء، وأنا في العموم لن أعدم حبيبة.

استهواني رده، فحسام شاب سكندري أصيل، وابن بلد و"مَجدع"، أي هو وَلَد كما نقول "مقطّع السمكة وذيلها"، طبعا ليس من الشباب المتدين، فأنا أعرفه جيدا، فزمالتنا ممتدة في سنوات الكلية، وإنما يختزن خبرات التعامل الأنثوي، من خلال تجاربه في الحب منذ الثانوي، وأيضا في الإعدادي، وقد

سقط بلسانه عدة مرات، في تجمعاتنا الشبابية، هذا الخبيث الداهية، وعرفنا شعاره: " لا أقترب إلا لمَن اقترب".

وقد حكى عن مغامراته السرية والعلنية، وإن كنت شممت فيها كذبا، ومبالغات، ربما لتسلية الفتيات عندما يردن شابا يحكي لهن عن قصص الشباب، أو لعله تعلّمها من صداقاته مع الشباب "الدنجوان"، الذين يعرفون جيدا أن من مداخل جذب الفتيات أن يكون ولدًا "فتِكًا"، يُشعِر البنت بخبراته، فتنجذب لشخصيته، ثم قد تسقط في حبه، أو على الأقل ستسعى لإرضائه؛ أملا في استمرار تسلياته الحكائية.

أعود لسؤال حسام، عن هؤلاء الذين لم يصارحوني مثل غيرهم:

- ولماذا سكتوا هؤلاء المحبون؟

بحنكة يجيب:

- استطلعوا رأيي، فأخبرتهم عنك، ففضّلوا الصمت.

شكرتُه، وأنا أوجز له كلاما جديا عن الأصول والواجب، وأنني ابنة عائلة كريمة، لا ترضى أن تتلطخ سمعة ابنتها بقصة حب متوقع فشلها.

❊ ❊ ❊

(٣)

في مكانها المختار أمام المدرسة، أوقفت حنان سيارتها، فلا تزال ساحة السيارات المخططة فارغة، فكعادتها وصلتْ مبكرا، لذا، احتلت أقرب مكان إلى باب المدرسة، وفي موقع يراها الحارس فيه، تطلعت فيمّا حولها، ثمة سيارات تتهادى سرعتها، ثم تتوقف أمام المدرسة في الشارع الرئيسي، وتترجل منها معلمات، قبل أن تنطلق ثانية، إنها سيارات الأزواج توصل زوجاتهن، أو سيارات يقودها سائقون من شرقي آسيا، توصل بعض المعلمات الخليجيات أو الكويتيات اللائي لا يقودن.

علّقت حقيبتها اليدوية في كتفها، وهي تتأكد من إغلاق أبواب سيارتها، فريموت السيارة آلةٌ، قد تخطئ في الضغط عليها. ألقت نظرة سريعة على ذاتها؛ متخذةً زجاج نافذة السيارة مرآة لها، ثم صفّرت معجبة باتساق ألوان الحقيبة مع هندامها، وواصلت صفيرها الهامس الذي يحمل أنغاما لموسيقى فيروز، وهي تدلف من باب المدرسة، لتبدأ يوما، فيه وما فيه وعليه وما عليه، وسينتهي في الواحدة والنصف ظهرًا.

تحية الصباح منها، فيشرق لها وجه الحارس المصري، الذي سبقها بالقول متمتما بأن عينه لا تغادر سيارتها، فازداد إشراق وجهها، فمن كثرة ترديدها؛ حفظ وصيتها، فالعديد من السيارات أصيبت بخدوش في صبغها أو تكسير في زجاجها، خاصة عند انتهاء الدوام، حيث يتكتل التلاميذ أمام المدرسة، ليصفّوا حسابات مؤجلة من عراكاتهم طيلة النهار، فيُحضِر

المتعارك ما تيسر حمله من طابوق أو صخر، وحتما سيكون خلف السيارات ملاذا آمنة للاختباء، مثلما تكون السيارات نفسها هدفا خطأ للمطاردِين، وفي جميع الأحوال، فإن الأولاد سيتبخرون هربا.

خانات دفتر الحضور شبه فارغة، فالساعة تخطت السابعة بدقائق، ولا يزال هناك متسع لتتابع وصول المعلمات. وقعّت حنان بتأن وهي ترسم كأنها ممسكة بفرشاة، وحين أدارت ظهرها كانت وكيلة المدرسة تدخل من الباب، وتصبّح عليها، فردّت عليها التحية مشفوعة بتعليق هامس، ضحكت الوكيلة عليه، وهي تلقي لها قبلة في الهواء. كان التعليق عن أناقة عباءة الوكيلة، الذي سيجعلها محط أنظار المحبّات لها، وأيضا الساخطات منها، فحتما هناك من يحضرن مبكرا، وهناك المتأخرات، اللائي ينتظرهن عقوبات تبدأ بتنبيه ولفت نظر، وتصل إلى خصومات.

تكاثرت المعلمات تدريجيا حول الدفتر، فانسلّت حنان بهدوء، واتخذت من سلم الإدارة سبيلا للوصول إلى قسم اللغة العربية. حتما قد سبقتها رئيسة القسم، الأبلة نوال، تأتي مبكرا لتوزيع جدول الاحتياط، إلى استيقاظ زوجها "أبي شبيب" قبيل الظهيرة، فحتما سيتصل بها عندما يفتح عينيه، لتخبره أنها في الطريق إلى المنزل، فهو يعاني من شلل في ذراعه اليمنى، ناتج عن حادثة سيارة أصيب فيها منذ سنوات؛ ألزمته التقاعد المبكر، مثلما ألزمت زوجته بأن تكون معه دوما، تساعده في شؤونه الخاصة، ولذا، منحتها الوزارة استئذانا يوميا قبل نهاية الدوام بساعتين. آثرت نوال الاستمرار في العمل، فتقاعدها المبكر سيخصم الكثير من راتبها، وأسرتها في حاجة إليه.

- أخبارك يا حنّونة؟ وأخبار الأولاد؟
- بخير والله، وأخبار أبي شبيب؟
- في نعمة وفضل... تجهزي لحصة احتياط يا حنونة.

ترد حنان برضا، وهي تعلم أن الاحتياط قدر يومي لا مفر منه، فجدول حصصها مخفض:

- من عيوني، كم معلمة أبلغتك بالغياب؟
- ثلاثة يا حبيبتي.. ولابد أن هناك أخريات.

***

زميلاتها يعرفنها بابتسامتها المرحة، ومشيتها النابضة بالنشاط والهمة، وهي تلقي تحية الصباح عليهن، وهن يتتابعن إلى ساحة المدرسة، استعدادا لطابور الصباح، بعضهن يجئن للمدرسة وعيونهن تقدح احمرارا، وحولها هالات سوداء، بفعل إدمان السهر، ويحلمن بنهاية الدوام، حيث الغداء ثم إبحار في النوم إلى العشاء. اتجهت خطوات حنان إلى الطابق الثاني، لتراقب طابور الصباح، فليس لديها حصة أولى هذا اليوم، وإن كانت تستمتع بمراقبة وقائع الطابور اليومي، وتسمع إذاعته الصباحية.

أرضية ساحة المدرسة الإسمنتية بالأبيض والرمادي، تلك ملابس طلاب الابتدائي، فبدت الساحة -في عيني حنان في وقفتها العلوية- متراقصة اللونين، والتلاميذ يؤدون الرياضات الجماعية، ثم وهم ينتصبون في وقفتهم عندما يرددون النشيد الوطني، بعد تحية العلم. "وليد، وسمر" حتما

يلحّان على خاطرها، فمع فارق التوقيت بين الكويت والإسكندرية، سيكون الاثنان في طريقهما إلى المدرسة، وليد بقميصه اللبنيّ الفاتح وبنطاله الأزرق، وهو يركب حافلة مدرسته الثانوية، أما سمر، فهي ترتدي مريلتها الخضراء، المزخرفة بالكاروهات، وستركب أيضا حافلة مدرستها، وسيقف كلٌّ منهما بعد قليل في طابور الصباح، يرددان النشيد الوطني المصري.

عندما سافرت كان وليد لا يزال في الروضة، وسمر في لفّتها بحضن جدتها، فأخذت عهدا على نفسها، أن تكون معهما بعد عامين أو ثلاثة..، سيكون وليد في الصف الثاني الابتدائي، وستكون سمر في الحضانة. نقضت العهد، ليكون السؤال: كيف نحسب العمر؟ سؤال فلسفي، من واقع قراءاتها للشعراء، ولكن حتما فإن العمر لا يقاس بالسنوات المتتابعة، وإنما بالسنوات التي نفارق فيها أحبّتنا. كم تغبط نفسها على تفلسفها، هل كل مهموم مثلها يكون حكيما؟!

ابتسمت، وهي تتطلع إلى معلمات الحصة الأولى اللائي يقفن أمام صفوفهن، ويتطلعن جميعا إلى المديرة الأبلة "خالدة"، التي توسطت الساحة، وعيناها تجوبان بين التلاميذ الذين وقفوا في قطارات متتابعة، كما تتفحص معلماتهم.

اليوم، ترتدي اليوم فستانا زاهيا في لونه البيج، واسعة أكمامه، وإن كانت قصيرة نوعا ما، وبيدها ساعة ذهبية لامعة. حجابها بلونه الأسود الثابت، وقد انسلّت منه شعرات شقراء، المعلمات يعرفن بخبرتهن في الأنثوية،

وبدوام ترددهن على الصالونات النسائية أن المديرة تصبغ بعناية، مثلما يدركن أنه اللون المفضّل عند المديرة، التي تبدو أصغر من سنها، وقد تخطت الخمسين بسنوات، ولها أحفاد من ابنتها الكبرى.

نظرات المديرة حازمة وحادة وهي تتفرس وجوه التلاميذ وشعورهم، فتلتقط سريعا من طال شعره، أو نسي غسل وجهه، وستشير إلى معلمته بعدئذ.

لم تنس عينا "خالدة" الطابق الأول، حيث وقفت حنان ومعها عدد من مشرفات الأجنحة، يتابعن الطابور، متعمدات بدورهن أن تراهن المديرة، فلربما تتعزز مكانتهن، وهذا ما يتهامسن، قبل وبعد الطابور، في تمثيلية مفتعلة من الدهاء، كما تردد حنان، وهي ترفع صوتها لمن تثق بهن من زميلاتها حولها، وتقول:

- إنه جزء من منظومة الطاعة التي نعيش فيها.

فيرددن عليها:

- ولماذا لا تخالفين المنظومة أيتها الحكيمة؟

تبتسم حنان، وتصمت ثوان، تضبط كلماتها للرد، كي لا تدخل معركة خاسرة مقدما:

- أنا أسمع وأطيع وأنفذ.

يضحكن جميعا، فهن يعلمن جيدا، أن شخصية "خالدة" لا تسمح بتمرد بالقول أو بالفعل، وكل واحدة تمتلك مواقف معها، وتعرف جيدا أن

مديرتها لا تؤكل من الكتف ولا من الرقبة، فهي طيلة النهار لا تعرف ركونا، كما أنها تحفظ أسماء غالبية التلاميذ: المشاغبين قبل الفائقين، وتصادق أمهاتهم، ولديها أيضا عيون من المعلمات، يتبرعن لنقل المهموس والمسموع، وأيضا كل شاردة أو واردة.

ارتفعت الشمس لتغمر بسطوعها ودفئها ساحة المدرسة، فدب النشاط في التلاميذ الذين أنهوا برنامج الصباح، وانتظموا في طوابير، للوصول إلى فصولهم. أشارت المديرة إلى مسؤولة الإذاعة المدرسية، فسارعت الأخيرة بتشغيل موسيقى كويتية خفيفة، سريعة الإيقاع، يحفظ التلاميذ كلمات أغنيتها، فراحوا يرددونها، وانطلق الجرس المدرسي صاخبا، معلنا بدء الحصة الأولى، وتعالى صخب التلاميذ وهم يجلسون في الفصول.

***

واصلت حنان أداء بقية طقوسها اليومية: الإفطار والشاي، فقادتها قدماها إلى القسم، ويدها تعبث في حقيبتها لتخرج شطائرها المعدّة، ولأن عينيها تسبقانها، أو بالأدق فإن محجري عينيها يتحركان في الميمنة والميسرة، ومن قبلهما المقدمة.

ولجت القسم الفسيح، الذي يتسع لما يزيد عن عشرين معلمة، لتشاهد في الركن المقابل "فريدة" زميلتهن القديمة المتقاعدة، متربعةً على مفرش من القطيفة، وبيدها فنجان القهوة الخليجية، وهي ترتشف منه ببطء، متأهبة ليوم من "الحكاوي النسائية والمشاوي الكلامية"، وهكذا تصفها الزميلات الفضليات في القسم.

اتخذت مجلسها بجانب مكتب نوال رئيسة القسم، التي تعشق حكاياتها، وتستحثها على المزيد، بل يقال إن فريدة تقضي نهارات وليالٍ في نهاية الأسبوع في بيت "نوال"، فهي منجم لا ينضب من الحكي، وحتى زوجها أبو شبيب يشتاق لسماعها، لأنها متقنة للهجة الكويتية: المفردات والتعبيرات، بجانب توغلها في المجتمع نفسه، الأعراس ورحلات البرّ، وعشاءات الحريم وقعداتهن، وبالطبع فإنها إذا حضرت سهرة أو عشاء، تخلب الألباب بقدراتها السردية الفائقة، ناهيك عن النكات والقفشات.

خلعت فريدة عباءة الرأس التي تحرص على ارتدائها، لتظهر فستانها بلونه البصلي الفاقع، وبضيقه عند الرقبة والصدر، والذي لا يناسب سنّها الستيني، وهي التي تعدد -كلما زارت القسم- ما استجد من أحفادها. عيناها العسلية تأطرت بكحل فاتح، أما وجهها فهو ساحة للأحمر في الخدين والشفتين، وكأنها تخفي الزمن -بكل عزمها-عن انتفاخات المحيّا، فلا تعرف عمليات الشدّ، ولا حقن البوتاكس.

حتما فإن فريدة قد جاءت إلى القسم قبل طابور الصباح، ومعها "دلاية" قهوتها التي تعشقها، وأيضا علبتان؛ واحدة بها تمر الرطب الطري، وأخرى بها حلويات متنوعة الأشكال.

كلتاهما فردت ذراعيهما: فريدة وحنان، وهما يطيلان العناق، والقبلات، وذكريات باسمة تتداعى تلقائيا، خاصة أن حنان لها مع فريدة مواقف لا تنتهي، مثلما أن لفريدة آثارا لا تمحى، تعلّمت منها حنان، بل تركت ندوبا في نفسياتها.

هتفت بها حنان، وهي تجلس جانبها على المفرش الوثير، وتتناول منها فنجان قهوة:

- -فريدة.. فرّودة، أهلا وسهلا بـــ "الأمورة".

اضطرت فريدة للوقوف؛ لتتابع المعلمات في الحضور، فراحت تتلقى السلامات، وتوزع القبلات، حتى إذا انتهين، عادت لجلستها، واستأذنتهن في مدّ قدميها، شاكية من خشونة المفاصل التي "ذبحتها" ألما، ولم يُجدِ دواءٌ حتى الآن نفعا معها.

سيكون لزاما على المعلمات الإنصات طوال اليوم، لأن فريدة ستحتل كل فراغ في القسم، بثرثرتها التي لا يوقفها أحد، بل إنها تتكلم وتسمع وتأكل وتشرب في آن، خشية تلاشي الوقت، ففي جعبتها من الطرائف والمتغيرات والمستجدات الكثرةُ الكاثرة.

ثلاثون عاما قضتها فريدة في الكويت، منها عشرون سنة في هذه المدرسة، قبل أن تصل لسن التقاعد، لتعود وتستقر في عمارتها المبنية في أطراف مدينة الزقازيق. وكم كان مؤلما -عليها طبعا- لحظة الفراق، وهي تغادر مدرستها العتيدة، وقد شهدت تأسيسها، قبل الغزو وبعده، بل إن المدرسة كانت تُعرَف بمدرسة فريدة، في مسامرات المعلمات، وأيضا الموظفات في المنطقة التعليمية.

كانت فريدة أول من تعرّفت عليها حنان عند قدومها إلى المدرسة، وقد كانت -في أول غربتها- غضةً طرية. فسكبت فريدة نصائحها في أذنيّ

حنان؛ التي آثرت الإنصات والاستفسار، لتعرف أسرارا ما كانت لتعرفها لولا حالة السيولة الكلامية الملازمة لفريدة، وقد اشتعلت في حنان حاستها الأنثوية، التي تجعل سمعها بئرا لا قرار له، يحوي الأسرار، ويحتفظ بها، وقد يخرجها متى اقتضت الضرورة، وكان لابد أيضا أن يفترقا، فتلك من سمات العلاقات النسوية إذا تخطت الحدود الحمراء.

وهكذا، وبعد مرور سنوات، تتذكر حنان قصة ابتعادها التدريجي عن فريدة، لأن الثانية رغبت في المزيد عن حياة حنان الخاصة، لا أن تكتفي بالخطوط العامة، فتملصت منها حنان، فقد أدركت أن أسرارها ستكون مشاعا، وعندما انقلبت عليها فريدة في صولة من صولاتها الأنثوية، كانت حنان متحسبة لهذه اللحظة، فقد نأت بنفسها بهدوء، واكتفت بالسلام والابتسامة، وفريدة بدورها، انشغلت بأخريات جديدات.

تدرك حنان مدى عشق فريدة للكويت، فلا يمكنها تحمل فراقها، وهي التي وجدت في الشخصيات المغتربة جنسيات عربية متنوعة، وتحمل كل واحدة همًا أو حلمًا، وكلما تتابعت السنوات، تزايدت الهموم، أو اتسعت الأحلام، وفي جميع الأحوال فإن فريدة تجد الجديد، الذي يمكن أن يضيف لمخزونها، مثلما هي تضيف باستشاراتها لهن، وبالأخص أن مجتمع "هن"، فيه من المسليات، التي جعلت من دوامها حكايات جديدة تتلقاها، ثم تعيد سكبها في مساءاتها، إما في الهاتف أو الزيارات.

في زياراتها المتكررة للكويت، تقيم فريدة عند ابنها المتزوج، لتداعب أحفادها، وتلتقي أيضا بزوجها، الذي استمر في العمل بعد الستين، ولم

يرغب في العودة للوطن، ليقضي تقاعدا مريحا مع زوجته. ذلك هو السؤال الذي دائما ما تطرحه المعلمات على فريدة، كلما جاءت لزيارتهن، وفريدة تردّ بلا اكتراث:

- هو براحته، وأنا أيضا براحتي.

تنكشها حنان، التي تعرف جيدا السبب:

- هل زَهِدَ فيكِ يا فرّودة؟

تضحك فريدة، غامزة بعينها اليسرى، وهي تلفظ نويّات التمرات التي حشت بها فمها، ثم عبّأت فنجانها بالقهوة الخليجية، وغمغمت:

- زهق من الصنف كله... كفاية شقاوة يا بنات.

تبتسم حنان، وتكتفي بهذه النخزة، فأكثر من ذلك، معناه خروج فريدة عن شعورها، فتشتدّ وتحتدّ، وساعتها لن ترى مَن أمامها، بل إن تجاعيد وجهها ستتلاشى، عندما ينفتح، فينطلق مدفعها الرشاش حاملا كلمات؛ هي مزيج من الهجوم والردح، ومن العبث لمن تسعى بالخير أن توقفها، فلابد أن تستمر، حتى تفرغ طلقاتها، ثم تهدأ، وتمسح زبد فمها، قبل أن تشرق أساريرها ثانية، ثم ينفرج شدقاها بالضحك. والغريب أن الكل يضحك معها، وينسى الرصاص الذي صبّته منذ هنيهات.

هن جميعا يعرفن أن زوجها هاربٌ منها، ليس لدواعٍ زوجية، بقدر ما يسعى لإراحة رأسه المكدود منذ أكثر من ثلث القرن، من مشكلات نتجت عن ثرثراتها النسائية، فكثير من كلامها تسرب إلى الرجال من

زوجاتهم، حاملا أسرارا وتحريضا وتهديدا مارسته فريدة على مستمعاتها، وهي تنقل لهن بكل أمانة ما وصل إليها من مصادرها الخاصة. بالطبع فإن مصادرها لا تخرج عن زميلاتها في المدرسة، مثلما أن دائرة زوجها هي أزواج الزميلات، أما الإشكالية الكبرى فكامنة في رأسها، وفي بنات أفكارها التي لا تنضب، وكما تصفها حنان، بعدما تغادرهن فريدة في نهاية الدوام، بأن "كلبة ولدت" بالخطأ في رأس فريدة، ثم تركت كلابها الصغيرة تسرح وتمرح، وتأتي بأفكار وتهيؤات.

***

حصتاها اليوم الثالثة والرابعة، فحمدت حنان الله-تعالى- بأن سببا قهريا سيلزمها المغادرة، لترحم أذنيها من فريدة، التي فرغت من القهوة، وتحولت إلى الشاي، حيث باشرت بملء كوبها من "الترمس" بعدما عبأته الخادمة السيلانية بالماء الحار، وأحضرته لفريدة في افتراشها للأرض، وقد تولت "فروّدة" بنفسها غمس فتائل الشاي مع الزعفران، ثم رجّت "الترمس" بقوة وسرعة وخبرة، ومن ثم أنتجت أكواب الشاي؛ تحتسي بعضها تارة، وتوزع على من حولها تارة أخرى.

فصار المشهد؛ يدا تتحرك رشفا، وأخرى تعطي صبا، وفمًا ينبض سردا. وعندما تغادر فريدة القسم؛ يتوجب على حنان ألا تدير ظهرها لها، خشية التواء خاطرها؛ وانقلاب وجهها؛ وتدلّي لسانها.

واقفون هم الأولاد، متطلعون إلى وجهها المتجهم، ونظراتها الحادة، وهي تلقي السلام عليهم، قبل أن تأذن لهم بالقعود. ران الصمت على تلاميذ

الصف الخامس، وهم يخرجون كتبهم ودفاترهم، ويتطلعون إلى معلمتهن التي أولتهم ظهرها، وراحت تخطط السبورة بخطها الحسن: العناوين والأسئلة بالأحمر، والتاريخين الهجري والميلادي بالأسود، والأجوبة مع الشرح بالأزرق. وهكذا يقلدون ألوانها في دفاترهم.

بابتسامة متقشفة، تبدأ شرحها، ثم يرتفع صوتها الجهوري، وهي ترنو إلى وجوههم، وحذاري لمن يمسك قلما أو يهمّ بتدوّين كلمة، فما عليهم إلا الإنصات، ثم الجواب إذا توجهت لهم بالسؤال، حتى إذا أذنت لهم بالكتابة، فإنهم يتسابقون قبل أن تمحى السبورة.

هناك عينان تستتران بنظارة طبية، أطلت من النافذة الخلفية للفصل، ترمق بإعجاب قوة شخصية الأبلة، التي جعلت الهدوء علامة لأشقياء الصف الخامس، ذلك الفصل الذي أتعب كل معلماته، إلا معلمة اللغة العربية، التي طبّعت تلاميذها بالسكينة، دون أن تتكئ على عصا، أو تُفلِتَ كلمة شتما أو سبًا، وإنما تكتفي بحدة نظراتها، وتصلب ملامحها، فيلوذ التلاميذ بالسكون.

تلك هي عينا خالدة المديرة، فأقدامها "تفترّ" على الفصول، متلصصة – وهكذا تصفها المعلمات- من فتحات النوافذ، أو تتسمر أمام أبواب الصفوف، ومعها سجلها الورقي، تدوّن وتؤشر، قبل أن تغادر في صمت.

***

حظيت حنان بمكانة خاصة عند المديرة، ولا تزال تتذكر كيف أن القدر هيّأ لها الاقتراب من هذه السيدة، ذات السطوة في إدارتها، فذات نهار وهي

في جلستها في غرفة مشرفة جناح الصف الخامس، إبّان منتصف الدوام، كان صوتا مألوفا لديها، إنها أبلة خالدة، هكذا همست لحنان مشرفةُ الجناح، ولكن المديرة لم تتوقف كعادتها عند باب الغرفة، ضمن جولاتها التفقدية المفاجئة، التي تتأكد بها من وجود المشرفة، أو تتابع سجلات الغياب اليومي، فاضطرت حنان للحاق بها. تباطأت خالدة، ثم مدت كفّها لتلاقي أصابع حنان، وهي تغمغم بكلمات السلام المعتادة على غير المألوف، وبعيدا عن أجواء الدراسة. واصلت خالدة طريقها إلى غرفة مكتبها، وحنان معها، وها هي تجلس قبالة مديرتها، التي راحت تضع المزيد من الكريم على كفيها، ثم قدّمت لها حبات متنوعة من الكاكاو، قبل أن تنشغل بالرد على مكالمة عاجلة.

وكأنها المرة الأولى التي ترى فيها مكتب مديرتها، فهي من قبل إما أن تدخل للتوقيع على محضر زيارة تفتيشية، أو لاستدعاء ولي أمر لمشكلة ما، وكلها مرات تُعَدُّ على أصابع اليد، فلم تكن حنان من فئة المعلمات اللائي يهوين الاقتراب ممن هي على رأس العمل، فقد تعلّمت من حكايات فريدة أن التعامل الرسمي مع المديرات في المدرسة هو الوسيلة الأسلم؛ منعًا لاشتعال الغيرة من رفيقاتها، وما أكثرها في التجمعات النسوية. بالفعل فإن فريدة لها حسناتها التي لن تغطي –بالقطع- على رماحها المدببة الجارحة، ولعل حسنتها الأساسية، أنها تعاملت بنجاح مع كل المديرات اللائي تتابعن عليها، وتجنّبت ما يثير غضبتهن عليها، فهي تحضر مبكرة، وتغادر متأخرة، ولذا، فإن من المفاخرات الفريدية أنها الموقّعة الأولى

والأخيرة في كشف الحضور اليومي، كما أن الغياب لا يعرف لها طريقا، فلا المرض يمنعها، ولا ظروف البيت والأولاد. وهذا منطقي، ويتناسب مع شخصية فروّدة، لأنها لا تطيق فراقا لجلساتها مع الزميلات، تجمع حولها الكبيرة والصغيرة، والقديمة والجديدة.

أنهت المديرة اتصالها، الذي طال بعض الوقت، كان المتصل مكتب مراقب التعليم الابتدائي في المنطقة التعليمية، والموضوع عن نقل بعض المعلمات من عندها، وهو ما أدى لانزعاج خالدة، ورفعت صوتها بحدة، وهي ترد على الموظفة، بأنها في حاجة إلى المزيد، لا إلى النقص، حتى استطاعت أن تبطل قرارات النقل، بل ومن خلال تسيّدها في المكالمة، أفشلت أية نية مستقبلية من جانب الإدارة.

وهكذا كانت أذن حنان التي أشاحت ببصرها عن وجه مديرتها، فأمارات الغضب ليست مرتسمة على وجهها، بقدر ما هي جزء لا يتجزأ منه، فدوما ترى مديرتها إما في زعيق، أو وعيد، أو تهديد، فإذا صمتت، يظل وجهها مقلوبا.

التفتت المديرة لحنان وقد تخاتلت على شفتيها ابتسامة مرحّبة، بدّلت بها حالة الغضب التي اكتنفتها، مما أشعر حنان بأنها أجادت صناعة الحدة. ابتسامتها عذبة، ولهجتها الكويتية حَضَريّة النطق والمفردات، فأحسّت حنان بمودة ضافية نحوها، واستغربت من هذه الشخصية التي تزأر طوال اليوم في طرقات المدرسة، فها هي الآن مشرقة الأسارير وحديثها بألفة عالية.

- أنت فائقة في النحو والبلاغة، ما رأيك أن تدرسي ابنتي شهد؟
- حاضرة لك أبلة خالدة، في أية سنة هي؟
- الثانوية العامة.
- أنا جاهزة في الوقت الذي تريدينه.

لم يكن لدى حنان وقت، فلماذا ترفض أو تعتذر، تلك فرصتها للاقتراب من مديرة المدرسة، بدلا ممن يتقربن إليها بطرق أخرى، إما بوساطات عائلية، أو بنقل الهمسات والتوقعات والشكوك، وخالدة في النهاية لمّاحة، تستشف النفوس، وما وراء الألسنة.

في تمام الخامسة، كانت حنان أمام بيتها؛ فيلا أنيقة في ضاحية "هَدية"، ويبدو أنها سكنت فيها حديثا، حيث بدت بصمات المديرة على ديكور البيت الخارجي، الذي جاء هادئا، مؤلَّفا من تدرجات البني، بدءًا بالبيج الفاتح، منتهيا بلون القهوة الغامق، وعلى الحواف بروزات وردية. هذه هي خالدة، كأنها فنانة تشكيلية تعزف بالألوان في اختيار ملابسها، فتصميماتها حديثة، وتكون عادة مستترة، لأنها تلبس عباءة الرأس السوداء خارج المدرسة، حتى إذا ولجت إلى مكتبها، فإن أناقتها تبرز، عندما تخلع عباءتها في ركن جانبي، وتبدأ في نشاطها الدائب.

ركنت حنان سيارتها أمام مدخل البيت، وآثرت البعد عن المظلات المنصوبة، فهي تعلم يقينا أنها مخصصة لقاطني المنزل. وقبل ضغطها على جرس الباب الخارجي، أتاها صوت المديرة في السمّاعة الملحقة بجرس الباب؛ ترحّب بها، فموعدها مضبوط، وقد شاهدتها عبر الكاميرات، هكذا

أخبرتها، فانتبهت حنان إلى أن مواضع الكاميرات خفية نوعا ما، لأنها في ثغور مبثوثة وموزعة في الديكور الخارجي للبيت.

انفتح الباب، دلفت حنان إلى بهو المنزل، سلالم وطرقة رخامية، تفضي إلى صالة فسيحة، حيث مقاعد الأنتريه. خالدة منسدلة الشعر، بدرّاعة بنفسجية، مع مكياج خفيف، قادتها ضاحكة إلى غرفة الصالون، بينما عينا حنان تتأمل زخارف الصالون، وتصميمه الذي يشابه البيوت الإنجليزية، لم تنتظر خالدة كثيرا، تعرف حنان وعقليتها وانفتاحها، فتوجهت لها بالحكي، وهي تجلسها وسط الصالون:

- كنت مع المهندس المصمم في كل خطوة، آثرت تصميم البيوت الحديثة، وأقنعت زوجي به، لذا ليس لدينا ديوانية. الطابق الأرضي استقبال وخدمات، والأول العلوي غرف النوم، وعندي مكتبة بها كتب جمّعتها منذ كنت في الابتدائية.

تمتمت حنان بأدعية البركة، وهي تتلقى عصيرا في كأس مزركشة من الخادمة النيبالية، بينما تحركت خالدة وراء الخادمة للتأكد من تجهيز الطاولة بالكتب والأقلام.

مشاعر متضاربة تعتمل في أعماقها، ذاك ما حلمت به يوما، وتمددت غربتها من أجله، تحدثَ عنه العشاق أيام الجامعة، في جلساتهم على العشب، يحلم هو بالبيت الفسيح، وتحلم هي بالأثاث الحديث الفاخر، ولون الستائر متعددة الطبقات، والأرضية المغطاة بالسيراميك الفاتح، والمزهريات في الأركان بزهورها المتدلية. انتبهت على صوت شهد يلقي

عليها التحية، لا تشبه أمها، يبدو أن والدها حنطي، نهضت حنان لتتخذ جلستها خلف الطاولة، وبجانبها شهد، وآثرت خالدة أن تتخذ جلستها على كرسي وثير، ممسكة بهاتفها النقال، وبجانبها مجلة بالإنجليزية.

كانت لحظات تحدٍ، استثمرت فيها حنان خبراتها في الدروس الخصوصية المسائية، وراحت تستعرض قدراتها أمام مديرتها، التي أطرقت سمعها لصوت معلمتها الرخيم، وهي تقرأ الشواهد الشعرية البلاغية، وتستفيض في شرحها، ثم تسارع بكتابة خلاصة كلامها على الورق، وقد أنصتت إلى إجابات شهد عن أسئلتها شفاهيا، ثم تنتقل إلى نقطة تالية، مما أظهر الرضا على وجهي شهد وأمّها.

- ما رأيك في فنجان قهوة تركي قبل أن تذهبي؟

هكذا دعتها خالدة بعد انتهاء الشرح، وهي تؤشر لابنتها بالمغادرة، فيما ضغطت على زر في ريموت متنقل، تحمله في يدها، وسرعان ما حضرت الخادمة، فحدثتها خالدة بالإنجليزية، وهي تشير إلى ركن بالصالون، فاحت فيه رائحة البخور.

مديرتها راغبة في الحوار، هكذا أدركت حنان، وهي تستحضر ذكاءها، لتصوغ سؤال مفتاحيا، ليكون بداية لكلام شائق مع خالدة، وبه ستبدأ في التعرف على تلك الشخصية القيادية التي تهابها النفوس، وهي تصول وتجول نهارا، فهتفت بها:

- أبلة خالدة، شخصيتك في المنزل مختلفة عن المدرسة؟

تطلعت إليها المديرة طويلا، وهي تناولها فنجان القهوة التركية، وقد حمل وجها فاتح اللون. ولأن السؤال كان مفاجئا، فإن خالدة آثرت الرد بسؤال:

- كيف يا عزيزتي؟!

تنسّمت حنان بخار القهوة المحمَّصة، بمزيج من الهيل وحبات البن الغامقة، ورشفت رشفات متتابعة، موقنة أن خالدة ذات مزاج عال وراق، ثم تطلعت لها:

- -أنت في المدرسة حازمة..

قاطعتها المديرة، لتفاجئ حنان بضحكة شديدة المرح، وهي تكمل عنها:

- .. وقاسية، وعبوسة، ولا أعرف إلا الشدة.
- لم أقصد أبدا!!
- يا حبيبتي، هذا قناعي في العمل، أخلعه عندما أدير سيارتي وأغادر في "الهدّة".
- ولماذا القناع؟

كان الجواب بسؤال، وعينا المديرة تلتمعان بصفاء:

- -هل شخصيتُك في الصف هي نفسها في القسم؟

بوغتت حنان بالرد، فهو يظهر شخصية عركتها الحياة والناس. بخجل نظرت إلى المديرة، وانتبهت إلى قَصَّة شعرها الأشقر، وتدلي شعيرات على حافة جبهتها، بما يتلاءم مع درّاعتها الفضفاضة مزركشة الحواف عند الزند والقدمين. أكملت خالدة:

- -حياتنا كلها أقنعة، والمرأة الحمقاء من لا تعرف ذلك.
- -ظننت أن شخصيتنا واحدة.. في كل المواقف.
- واهمة أنتِ.
- ألا يجب أن نكون واضحين؟

شرحت خالدة، وقد انشرح صدرها لمعلمتها، وتأملت وجهها المسمسم، وهي تقول:

- لو بدا مني أي تراخ أو محاباة، فإن الأمور ستفلت من يدي، هذا في المدرسة، ونفس الأمر مع بناتي، ومع الناس..

إنها فلسفة مختلفة، فكان على حنان أن تصمت بل وتستزيدها بمزيد من النظرات المحفزة، لا لكي تعرف، وإنما لتؤكد أن ما سارت عليه منذ سنوات، كان صوابا، عندما أغلقت ذراعيها وقلبها، وفضّلت أن تتعدد أقنعتها. فكلمة القناع هي الأنسب، عندما تنضج عقولنا، ونفهم أن الناس ليسوا على هوانا. ولذا، علينا أن نكون على قدر عقولهم، مثلما يتوجب علينا أن نعي نفوسهم، وتقلباتها، وجنوحها.

كانت هذه الجلسة هي الأولى، وليست الأخيرة، فقد تواصلت زيارات حنان، وطالت الأحاديث، وصارت حنان جزءا من أسرة المديرة، ومع ذلك كانت من الذكاء، فأخفت علاقتها الخاصة مع خالدة، في الوقت الذي عاملت فيه خالدةُ حنان بحب وتلقائية، بعدما فضفضت لها عن ولديها، وزوجها، وآلام غربتها.

(٤)

لم أكن متمردة، كما تخيلت نفسي، وإنما أنا تقليدية إلى النخاع كما يقال، مثلي مثل أي بنت، فقط تميزت عنهم بثقة قد تقارب الغرور، وبطلاقة كلامية تجعلني دائما سيدة الجلسة وموطن لتلاقي الأنظار إذا اجتمعنا في حلقة. وربما كان هذا الوضع يرضيني ويناسب تربيتي. فعيناي امتلأت بالشك، وظننت أن أي رجل يتربص بي، وإن اختلفت أعمارهم، فهزئتُ من الحب، مستسلمة للقناعة المتوارثة بأن الأب يختار الأصلح، ومعه أعمامي، وأيضا أخوالي، فيما يسمونه مجلس العائلة، بحكم أن أبي هو الأكبر بين إخوته، ولديه المنصب الحكومي الرفيع أو هكذا يرونه، فأعمامي وأخوالي ما بين تجار أو موظفين صغار، ويظل أبي الذي كان أول من تخرج في العائلة من الجامعة، وأفضل من ترقّى في وظيفته، وصار تحت رئاسته موظفون، وله مكتب مستقل، يزورونه أقاربي فيه، لطلب الوساطة وتسيير شؤونهم.

يلتئم المجلس عادة في غرفة الصالون في شقتنا، صالوننا مؤلف من كنبتين كبيرتين، وحوله ستة كراسٍ وثيرة، يذكرني بصالونات القصور التي نراها في أفلام زمان، فلونه مذهب، ونقوشه كثيرة، وبطانته وثيرة، ودوما ما تضع أمي عليه أغطية، ترفعها قبل قدوم الضيوف بدقائق، فتنطق زخارفه لمعةً وزهوةً.

غرفة الصالون واسعة، نافذتها كبيرة، إذا فتحنا ضلفاتها الثلاث؛ غمر الغرفة هواء إسكندرانيا، مشبعا بنسمات البحر. باب الغرفة مفتوح على الصالة، ومجاور لباب شقتنا الخارجي، ولها باب صغير يفضي إلى الشرفة الرئيسة للشقة، والتي تأتي ملتفة مع استدارة العمارة، فمن يجلس فيها يشعر كأن الشارع أسفل قدميه، كثيرا ما يجلس فيها أبي مع عمي، يتأملان حركة الناس والسيارات في الشارع، ويستعيدان ذكريات زمان، عن إسكندرية الأجانب، والبنات الأوروبيات الشقراوات، وعن القصور التي كانت تزين شارع الكورنيش، والتي أزيلت تدريجيا، لتنتصب محلها أبراج شاهقة، تحتكر الكورنيش لقاطنيها، وتُتعِب رقابنا عندما نحاول أن نصل لسموق منتهاها.

كثيرا ما جلست مع أبي وعمي أستمع لهما، مولعة كنت بحكاياتهما، كأنني أضيف لعمري أعمارا أخرى، وأنا أستمع لمصائر شخصيات، عاشت في ذاكرة كل منهما، وكيف تقلّبت الدنيا والأحوال والأموال بهم. يحكيان عن زمن رمادي، لا تكاد تظفر بمعالمه، لأنه قابع في ذاكرة، تناست ما هو رديء، وأبقت الوردي والضاحك.

أنصتُ إلى عمي، شيقٌ في حديثه، وأبي يستحثه، فيكمل بعض ما ينساه، ثم ينظران لي ضاحكينِ، ويقول عمي:

– -شقية أنت من صغرك، تحبين قعدات الرجال.

فأردّ بلثغة ودلع، محاولة أن أقلد صوت الطفلة:

– -ومجالس الستات "كمان" يا عمو.

مجلس عائلتنا الذي يلتئم عادة في الصالون، مخصص لقضايا عائلية: نسب ومصاهرة، وصراعات الميراث، وخلافات الأشقاء وأبناء العم حول اتفاقات وديون، ووعود. والغريب أنهم كانوا يقتصرون على مناقشة مشاكل الرجال، فلا يليق أن تكون مشكلات الحريم بأسمائهن موضع نقاشات. ولكن الواقع الذي خبرتُه، أن غالبية المشاكل وراءها الخبث النسائي، وهكذا كان يحكي أبي، وهو العليم ببواطن الأمور، ويقول بعدما ينفضُّ الاجتماع الموقَّر:

- رأي فلان من أخته، ورأي علان من زوجته.

وعندما أعترض عليه، وأسأله كيف عرف، يضحك ويقول ببساطة:

- فلان لا يتوقع أن يخرج منه ما قاله، بل هو فوق تفكيره..، ما أسهل على المرأة أن تملك أذن زوجها، فأحابيلها كثيرة، وهو مسكين أمامها.

ساعتها، أدركتُ بفطنتي الأنثوية، كيف تكمن براعة المرأة بامتلاكها رأس زوجها، بعدما تتربع في قلبه، ويكون خاتما في إصبعها. وتبدّت الأزمة أكثر في أن غالبية قرارات مجلس العائلة لا تنفذ، ليس لأنها تحريض نسائي فحسب، وإنما لأن القرار المتخذ، يكون بألفاظ عامة، أو ضبابية، مثل تصريحات الدبلوماسيين المائعين، كلامهم منمق، ومنزوع الدسم.

واليوم كان الاجتماع حول خلاف على الميراث، وكان القرار الصادر بعد مداولات لساعات، شربوا فيها نهرينِ من الشاي والقهوة، أنه لابد من

مراعاة الإخوة، وصلة الرحم، فإذا اشتد الخلاف فلا مناص من اللجوء للقضاء.

بعدما غادر الضيوف بيتنا؛ تُنصت أمي بنصف اهتمام لما يقصّه أبي، الذي يفيض في الحكي والتفاصيل وكأنه يفضفض لما كتمه في نفسه أثناء الاجتماع، وأنا أطرِقُ طبلتي أذنيّ؛ كي لا تفوتني كلمة أو شهقة أو إشارة. فبمثل هذه الحكايات نعرف بواطن الرجال، وكيف يُعملون عقولهم في القضايا الكبيرة وأيضا الصغيرة.

يحكي أبي، وهو واثق تمام الثقة أن أمي ليست من النوعية الحكاءة إذا التقت مع نساء العائلة، فكلامه وتعليقاته مصانة، فله أن يتبسط كما يشاء، وعلى عادته في التحليل، فحكى اليوم عن قريبنا فلان، الذي لا يتحرك أو ينطق إلا بعد مشورة زوجته، وإذا واجهوه، يقول هذا نابع من حبي واحترامي لها. يعقّب أبي ضاحكا: الغريب أنني أعرفه جيدا، قبل زواجه، وبعده أيضا، وأن هذا قناع أمام زوجته، كي يخفي نزواته، التي يعلمها الكل، خاصة على شاطئ أبي قير في أطراف الإسكندرية، حيث يكون المصطافون قلة، لعل وعسى أن يفلت من أعين قد تعرفه، وتفضحه.

أفرغ أبي ما في جعبته، ينهض متجها إلى الشرفة، حاملا كوب الشاي الكبير الخاص به، ليتخذ جلسته المسائية متأملا الشارع والناس، وعندها أستجمع ما في أعماقي، لأسجل اعتراضي على القرار العائلي المُتَخذ، واثقة أن أمي ستسمعني:

- -بعد كل هذه الساعات، يكون قرارهم مثل شربة زيت الخروع الماسخة.

فترفع أمي أصابعها البضة، والتي خلت من العروق، وتقول:

- كلام فض مجالس يا بنتي.

وعندما استفهمتُ منها، وتطلعت إلى وجهها، حيث ارتسمت عليه حنكةُ السنين، قالت وهي توجز، وكأنها تترفع عن الجدل:

- -ماداموا قد اجتمعوا وتناقشوا، فلابد من موقف، ولأن المشكلة وراءها حريم متعاركات، تتبدل نفسياتهن، فلابد أن يكون القرار مائعا، يرضي الجميع.

ربما أكون قد ورثت هذا المنطق عن أمي عندما تتكلم، وكأنها خبرت الناس كلهم، وتعرف عاليهم وواطيهم، خصوصا رجال العائلة وحريمها، وهو ما يظهر عليّ عندما تشاورني إحدى صديقاتي، فأرتدي مسوح الحكيمات، وأختار كلماتي بعناية، وأطوف وأجول وأحلل المشكلة، وقد منّ الله علي بقاموس ثري من الكلمات، ناهيك عن التعبيرات التي أنحِتُها من قريحتي، غير العبارات التي يفاجئني لساني بها، فتنبهر مستمعتي، وتؤكد أن عقلي سابق لسني، وفي الحقيقة أنني لا أملك إلا لسانا "زالفا"، وخبرة استقيتها من مشكلات العائلة، أما الحلول التي أقترحها، فهي من بنات أفكاري، وغالبا ما تكون عدة حلول، تتوافق مع هوى من تناقشني، فيزداد حبها لي، وتزداد – بالتالي – فضفضتها، وأتلذذ أنا بحكايات متجددة منها.

وماذا عني أنا ومجلس العائلة؟ ذلك السؤال الذي يردده كل شاب أو بنت من أبناء العمومة أو الخؤولة، حينما يتعلق الأمر بالزواج. لذا، أوقن، أن قرار زواجي مرتبط بهذا المجلس المتوارث كما يقول أحد أعمامي من "جلسة المندرة" في البيت الكبير في قريتنا القريبة من دمنهور، حيث كانت أرض العائلة ترمح فيها الخيل والبقر والغنم، وكنا نأكل كل ما هو صابح وطازج من الزرع الأخضر والشجر المثمر، وليس حالنا مثل الآن: فواكه الكراتين، والخضراوات المثلجة، وعيش المخبز.

وهكذا كان عمي يسترجع الذكريات مع أبي، وأبي يعضد كلامه، ويتذكران، وأنا أنصت، متخيّلةً هذا العالم القروي، وأنا أوقن أنه وردي فقط في ذاكرتهما.

يطنب عمي: كان الفطور من أرغفة الخبز الساخن من الفرن البلدي على نار الحطب، مع الجبن القريش والقشدة والزبدة والبيض، أما الغداء فيقطّر سمنًا، عندما تخرج جدتي القِدر من الفرن، وتضعه على الطبلية، ومنه تسكب في الأطباق، وفي الليل نعدّ الشاي على ما تبقى من جمرات الفرن، التي تعيد جدتي إشعالها، وعلى وهجها الضعيف، تُترَك غلاية الشاي، ويكتفي جدي عادة برغيف من العيش الناشف، مع كوب الشاي الغامق.

ذلك ما تبقى من قريتنا حيث أصل شجرة العائلة، وأمجادها، وبيت الجد الكبير، موطن ولادة أعمامي، وطفولتهم الأولى، قبل أن تتقاطر العائلة تباعا إلى المدينة، مثل غيرهم من الأسر، التي تعلّم أبناؤها في الجامعات،

فترفّعوا عن حياة الريف، ما داموا قد وجدوا وظائف على مكاتب في الدواوين الحكومية في المدينة.

أما نحن الجيل الثاني، فقد عرفنا القرية في زيارات متقطعة متباعدة، عندما كنت أسافر إلى بيت الجد، نجلس نحن البنات على الكنبة بمراتبها القطنية في دهليز البيت الداخلي، نضرب أقدامنا في خشبها، فيأتينا صدى الصوت عميقا؛ ناتجا عن الفراغ الذي يحدثه خشب الكنبة. بينما يجلس أخي مع الرجال في مدخل البيت، على مقاعد المندرة، ثم نلتئم على الغداء، على الحصير المفروش، والطبليات تمتلئ بأطباق الطبيخ واللحم، تخدم أمي وزوجات أعمامي الرجال، ونحن البنات من خلفهن نساعدهن، وننتظر أن نأخذ مجلسنا بعدما ينتهي الرجال، ويقومون لاحتساء الشاي.

هكذا، كنت أتذكر مع أبي وعمي في جلستهما المعتادة في الشرفة، وأنا أتخذ مجلسي في المقعد الثالث، كلاهما يحبان حكاياتي، حيث الذكرى ممزوجة بالضحكة، فيتسابقان ليكملا بقية الحكاية، فيذكر أحدهما ماذا أكلنا، ويذكر الثاني متى رجعنا.

***

اجتماع مجلس العائلة يعني طوارئ في بيتنا، يوم الجمعة الأولى من كل شهر، نقف نحن -البنتين وأمنا- بُعيَد الفجر، لنجهز الغداء، الذي يكون غالبا لحما مطبوخا عائما في صلصلة الطماطم مع صنفين من الخضار، لا يخرجان عن الشائع: البطاطس والفاصوليا والبازلاء، والملوخية الخضراء صيفا، أو المجففة شتاء، وبجانب كل هذا حلة أرز كبيرة، والسلطة

والطرشي، أما الحلو فهو بسبوسة، مع مهلبية مزدانة بالمكسرات، أو أرز بالحليب، والأخير طبق مفضل لدى الرجال، وتبرع أمي في صنعه، وتزينه بالزبيب وجوز الهند، وتراعي ألا يكون سكره كثيرا، تحسبا لمرضى السكر ومن شابههم. عادة لا يزيد عدد المجلس عن ثمانية أو تسعة، وكلهم وبلا استثناء يتلذذون بالطعام، ويدعون لأمي بسلامة الأيدي، وأن يديم العز في بيتنا.

يصلي أبي الجمعة مرتديا جلبابه البلدي، وعليه عباءة معلقة بكتفيه، ويجبر أخي أيضا على لبس الجلباب. يعود فيشغّل التلفزيون في الصالة منصتا إلى الشيخ الشعراوي، ثم يتخذ مجلسه وسط الصالون، حيث يتوافد الأعمام والأخوال، وتبدأ الحوارات بينهم، يغلب عليها الطابع الثنائي في البداية، قبل طرح الموضوع المستجد، وكما يسميه أبي، تأثرا بطريقة عمله في الوظيفة: "الموضوع المدرج على جدول الأعمال"، ولأن العنوان كبير، فإن المجلس ينصت لما سيطرحه أبي، قبل أن يشتركوا في الأخذ والرد، وطبعا الموضوع لا يتناسب مع مهابة العنوان، فقد كان عن خلاف ابن عمي مع أخيه حول بيت والدهما، من يحتل شقة الدور الأول، ومن يأخذ التي في الدور العلوي. وجوهر الخلاف اعتراض الذي في الأسفل على مَن في الأعلى، على الرغم من أن الاثنين لهما سنوات على هذا الوضع، ولكن يبدو أن أصابع أجنبية(نسائية بدافع الغيرة)، قد لعبت في عقل القاطن في الأسفل، وحرضته على رفض هذا الظلم، على الرغم من أنه تمسك بشقته في بداية زواجه، وعدد مزاياها، ولكن هكذا تتقلب النفوس بالعقول، وتتبدل

المواقف. وجاء القرار بإبقاء الوضع على ما هو عليه، وعودة العلاقات الأخوية، ويمكن للمشتكي بناء شقة في الدور الثالث إن أحب، وهو لا يريد ذلك، فليس معه المال، ولا تتوافر النية.

الغداء يسبق المشاورات، ثم يصلون العصر جماعة في الصالة، ويظلون إلى آذان المغرب، ثم ينصرفون معا، وعلينا نحن الحريم غسيل الصحون.

بيتنا واسع، فهو شقة تعود لستينيات القرن العشرين، وقد سعت أمي لتجديد أثاثها كلما توافرت مدخرات للأسرة، وغالبا ما تكون حصيلة مكافآت وجمعيات ادخارية، توضع في حساب أبي بالبنك، والاثنان يرفدانه بما يفيض وإن قلّ. وهكذا، عشنا في يسر، وإن ارتبطت طلباتنا بعبارة الموظفين الشهيرة: أول الشهر، حيث قبض الراتب من الصرّاف، وعودة أبي، وأيضا أمي، حاملَيْنِ المشتريات. أبي يجلب الفاكهة في أكياس ورقية، وأمي تشتري خضارا أو المزيد من أدوات المطبخ. وكنت أتندر أنا وأختي عليهما، بأننا نحيا حياة الموظفين: ترقب المرتب نهاية الشهر، حيث تتأخر طلباتنا، وتتوقف الاستجابة لها على ما يتوافر من ميزانية، أو يتم ترحيلها إلى الشهر التالي. حياة رتيبة، ولكن مستقرة، لا مفاجآت ولا تقلبات، وتيرتها واحدة، وأيامها متشابهة، وحكاياتها متكررة. أما سكان العمارة معنا فيشابهوننا في عاداتنا، فهم من نفس طبقتنا: الطبقة المتوسطة، الآباء موظفون حكوميون، يجمعهم التوقيت الواحد في الذهاب عند السابعة صباحا، وفي الإياب عند الثانية والنصف ظهرا، يتقابلون على سلالم العمارة، يتبادلون التحيات المكررة. بالتأكيد هم مختلفون، ما بين الطيب

البشوش، والمُقَرّم (اللئيم) العبوس، وهكذا أعرفهم من تقطيبات جباههم وانبساطها.

***

هذه عائلتنا، ولقبها " الصياد"، بأصولها البحراوية – محافظة البحيرة-، ويبدو اللقب متناسقًا مع حياتنا السكندرية، حيث صيد السمك، وأكله بشراهة. لا أعلم أن أحدًا من عائلتي الموقرة احترف صيد السمك، وإن كنا تأثرنا بشراهة السكندريين وعشقهم للسمك، وبعضهم يتغدى ويتعشى به، وأنا واحدة منهم. وعلمتني أمي فنون طبخ السمك بكل طرقه، المقلي حتى يكون مقرمشا في الزيت، أو المشوي برائحته التي تنتشر في العمارة، فيشاركنا الجيران الشم، ونفوز نحن بالسمك، الذي تغرقه أمي في الشطة السائلة، بعد شوائه، ثم يستقيم مرتبا على السفرة، مشفوعا بالطحينة وسلطة الطماطم والأرز الأصفر ذي البصل والبهارات، فتكون وجبة مشطشطة.

تمتاز عائلتي بالصيت الواسع، الذي نتباهى به من خلال عدد من متاجر البقالة والملابس والأقمشة، ولافتاتها تحمل عادة اسم صاحبها، الذي ينتهي بلقب العائلة، والذي اعتززت وتفاخرت طيلة عمري به، وأقدم نفسي قافزة على أسماء: أبي وأجدادي، والتي تمتد إلى الجد الخامس عشر، ونحن نحفظها كما نسميه عادة في كتبنا المدرسية: " منذ نعومة أظفارنا"، ولأن أبي هو عميد العائلة، أو بالأدق فرع العائلة السكندري، فإنه يتأكد إلى يومنا من حفظنا لشجرة العائلة المتبحرة في التاريخ، مع تنقلاتها الجغرافية بين البحيرة والإسكندرية.

ولا زلت أتذكر، وأبي يجمعنا حوله وكنت صبية صغيرة، أحيط أخي بذراعي، وأذكره عندما يطلب منه أبي استظهار سلسلة نسبنا، وبل ويجب أن نسطرها في سويداء الفؤاد، علمًا بأننا جميعا، وأبي أولنا، لا يردد أمام أصحابه أبدا هذا المسلسل الضارب في عمق الزمن، من أجدادنا، ونكتفي جميعا بلقب العائلة بعد الاسم الأول. وها نحن، أضحك أنا وأختي وأخي، في جلسة أبي المسائية، عندما يطلب منا باسمًا وجبة تسميع نسبنا الطويل، وذات مرة، وكعادتي في التمرد، سألت أبي:

وأين الصياد في شجرة النسب الموقّر؟ أجاب بثقة:

- -هذا لقب وليس اسما.

فأعود لسؤاله:

- -وما سببه؟

نظر لي بضيق، وعيناه تحمل شذرا، وهز كتفيه صامتا، فلا يوجد جد يحمل اسم الصياد، على الرغم من أنه مدون في جميع شهادات الميلاد بأنه لقب العائلة الكريمة.

نحن من فرع الموظفين، الذين تعلموا، ووفدوا إلى الإسكندرية واستوطنوا العمارات السكنية، وتدرجوا في السلم الوظيفي، فصار أبي مدير إدارة في التربية والتعليم، وأمي ابنة عمه، وكيلة مدرسة إعدادية، واستسلما للدخل الشهري الثابت.

يجترّ أبي ذكرياته، ونحن الإناث حوله: أمي وأنا وأختي، أما أخي فهو منعزل في غرفته على عادته. يكرر أبي ما قاله لنا ونحن صغار، عن الظروف

الوظيفية التي خدمته، حتى وجد نفسه مديرا عاما لإدارة غرب الإسكندرية التعليمية، وتحت يده عشرات الموظفين والموظفات، وسيارة بسائق، والمستقبل أمامه ليصبح وكيل وزارة. تجامله أمي، وتتباهى بأنها يحميها بنفوذه، ولولاه لوجدت نفسها في مدرسة نائية على أطراف الإسكندرية، وأتبادل الابتسام مع أختي منى، التي لا تزال في الثانوية. أما أعمامي وأخوالي فظلوا في التجارة، وبعضهم حصل على وظائف صغيرة في الوزارات الحكومية، مع متابعة إرثهم في التجارة.

***

ها أنا في اختبارات السنة الرابعة من الكلية، بل في الأيام الأخيرة منها، تلك الاختبارات التي استغرقت شهرا، نتبادل النظرات والابتسامات، كأنها لحظات الوداع، فكثير من زملائي في الدفعة كانوا من محافظات أخرى، عاشوا في الثغر، وتنعموا ببحره، وكانوا يغبطوننا على سكننا في المدينة الساحلية الراقية، أما هم فإن عملهم وإقامتهم في الأرياف، وستصبح الجامعة مجرد ذكريات تتردد على ألسنتهم، وهي ذكريات ظريفة، وإن حملت أحزانا وآلاما، تتصل عادة بمواقف الإحراج من الفتيات، أو صراعات الشباب أنفسهم وتنافسهم لعرض مهاراتهم في الإضحاك وخلب عيون البنات، والتي حتما تحدث بنظرات الإعجاب المتبادلة بين اثنين، تنتهي سريعا مع تجدد المواقف، وسعار التنافس العالي.

لم أخطط لمستقبلي، بل خططت لحاضري فقط، تلك الحقيقة التي لم يستطع ذكائي المعهود أن يصل لها إلا مؤخرا. واكتشفت أيضا أن المستقبل

بالنسبة لي طوباوي مثالي أو بالأدق غائم ضبابي، سأكون معلمة، ثم الزواج وارتداء الفستان الأبيض، والسكن في شقة فاخرة، أما فارس الأحلام، فهو بلا ملامح، مرهون بالمسار التقليدي الذي عليه كل البنات، عرسان يتقدمون، يقابلهم أبي، ثم يعرض الاختيار على مجلس العائلة، سأوافق بعد تمنع محدود، ثم تتتابع الإجراءات المعتادة، لأكون في النهاية زوجة، ومعلمة، وأما، مثلي مثل أمي.

أما ما قرأته في روايات الحب، وشاهدته في الأفلام العربية، عن إرادة الفتاة التي تفرضها، وتنتصر فيها لحبها، أو تختار بنفسها، فهذا نادر الحدوث، وغالبا ما ترضخ البنات بالرضى أو الجبر لاختيار الأهل.

تتنازعني شخصية أمي بروحانيتها العالية، عندما تطيل في صلاتها فإذا استبطأناها، وجدناها في جلسة تسابيح بعد الصلاة، وعند انتهائها تواصل بصلوات النافلة. هي على قناعتها الدائمة ورضاها بكل ما في الحياة، وكما كانت تقول بـــ "الحلوة والمرة تعرفين طعم الحياة "، ثم تفصّل أكثر وتقول وأختي تسمع: " الحياة متقلبة بنا، ولن تعرفي طعم الحلو إلا إذا ذقتِ المالح". وعندما تراني أمام المرآة ألون وجهي بمساحيق جديدة، تهمس لي ضاحكة: " ارحمي وجهك، الطبيعي أحلى". وعندما تعانقني، أستشعر حنو كفيها، وكأنهما حملتا عطف الناس كلهم بين أصابعهما. وكم من مرة، أسائلها عن سبب تسميتي بـ" حنان"، ويسمع أبي، ويبتسم، ويقول: "كان اسمك موضة في الأسماء ساعتها". وتسكت أمي، على عادتها ألا تخالف أبي، أما أنا فأقول: لأنك كلك حنان يا أم حنان، ثم أغوص في حضنها، ونواصل حديثنا الضاحك.

وماذا عن أبي؟ ويبدو أنني أخذت نزعة التمرد عنه وعشقه للحياة، يشم الجيران رائحة عطره الفخم، الذي يفوح على سلالم العمارة، فيثير حسد البعض، والهمسات عند الكل. وإذا كان طموح أمي منحصرا في رضا الزوج ورعاية الأولاد والبيت والالتزام بالوظيفة. فإن أبي، الذي دوما يتأنق في ملبسه، ويعتنى بشعره الغزير، فيجعله دوما لامعا، صابغا ما بدا من بياض أطرافه، إلا أنه قانع بمآل حياته، لا يعنيه المستقبل كثيرا، فحسبه أن يعيش يومه مستمتعا، وهذا ناتج عن استسلامه للوظيفة، والحياة الروتينية، فقد تزوج صغيرا، وصرنا شبابا حوله، ولا يزال في عقده الخامس، يتنعم بمنصبه، وكما يحكي لنا في سهراتنا المسائية، عندما اقتصر التلفاز ذو الإريال على قنوات ثلاث، فإذا مللنا منه، لا نجد إلا إذاعة الإسكندرية المحلية، التي يعشقها والداي، ويحبّان مسلسلاتها الدرامية، ويعرفان نجوم الثغر، ومطربيها، ويسترجعان ذكرياتهما، مع سهرات أم كلثوم، التي كانت تعاد أسبوعيا، بعد وفاة الست. أسرتنا تذكرني بالأفلام العربية القديمة، جلسات القهوة المحمصة في المساء، وحكايات معتادة عن الناس والجيران والعمل. وكما كنت أقول لأمي، حفظت أسماء المعلمات عندك بسبب حكاياتك عنهم، أما أبي فعرفت مرؤوسيه جميعا.

❊ ❊ ❊

(٥)

تتذكر حنان الساعات الأولى عند وصولها إلى مطار الكويت، يومٌ فارقٌ في حياتها، هكذا استرجعت، ولا تزال تشتبك مع أحداث هذا اليوم، اقتصر حكيها على المقرّبين لها فقط، هؤلاء الذين تستشعر معهم بالحميمية؛ مع أختها وأخيها ووالدها عندما أتوا لزيارتها في إجازتها الأولى، أرادت أن تفضفض، استمعوا لهم مهتمين بما ترويه من أحداث جديدة، فجاء حكيا موجزا، أقرب إلى الأخبار، دمعَتْ أختها، وتأثر أخوها، وحضنها والدها، ثم انفضت الجلسة، ولم يتكرر الحكي؛ ربما لتقلبات الحياة التي فرّقتهم، وربما لأن الكبار يكتفون بالمعرفة مرة واحدة، ويعدّون التكرار بلا قيمة، وربما لأن ما تعرضت له يظل عاديا، فشأنها شأن كل من كان معها، وبعضهم قاسى أكثر، فمآسي الدنيا أشد. و" من يرَ هموم غيره، يهنْ عليه همه"؛ هكذا علّق والدها، فهو إذا تكلم أوجز وأبلغ. ودائما ما كان ينصحها مع أختها: "الحكمة توفّر عليكما مرارة التجربة، ومن صمّ أذنيه، فلا يعضّ إلا كفّيه".

ولكنها لا تحكي كي تستجلب عطفا، وإنما لحقّها في البوح، وما تكرار سردها إلا علامة على استمرار الوجع، وما الوجع إلا ناتج عن شقاء، والشقاء ليس الغربة، وإنما لإحساسها أنها ممزقة، فقرار العودة عصي عليها. والمفارقة أنها تبوح، وهي تسرُّ في أعماقها كلمات أمها: لماذا نلوم أنفسنا على أوجاعنا، مادام يمكننا تغييره؟

***

أما ولداها فقد حكت لهما مرات ومرات، منذ تفتّح وعيهما، وكلما كبرا. وفي كل مرة كانت تضيف جديدا، فالذاكرة لا تزال مشتعلة، ويزداد وعي الصغيرين كلما أضيفت سنوات لعمريهما. اكتشفت أنهما الوحيدان اللذان يسمعانها دون ضجر، وذلك في زياراتها الدورية في إجازة منتصف العام، في أجواء الشتاء السكندري، يأتيان لها على السرير، فيستدفئان باللحاف القطني ذي البطانة والغطاء الحريريين، وهو بعض ما تبقى من جهازها بعدما استبدلته بأثاث حديث، وأصرّت على عدم تبديل اللحاف بالبطانيات الحديثة. يستمتعان بدفء اللحاف، وهما يناديان أمهما، التي تسارع إلى المطبخ، وتعود حاملة أكواب الكاكاو الساخنة، ثم تندسُّ وسط طفليها، تقصّ وقائع غربتها، تبدأ بالمستجد، ثم تعود أدراجها إلى يومها الأول. فباتا الصغيران يعرفان زميلاتها في دوامها، وجاراتها في السكن، ومناطق الكويت وشوارعها، وقبائلها وعاداتها، تتمنى ابنتها سمر السفر معها، تصم حنان أذنيها، فإن ألحّت البنوتة، تهمس بأن الحياة مع أبيها وجدّتها نعمة ونعيم.

بصوت خفيض، يسمعه ثلاثتهم فقط، تطوّف بهما وتشوقهما ثم تسكت، بعدما باحت بكل ما خطر على بالها، ولكن الليل لم يصل لمنتصفه، تنظر إلى عيونهما الأربعة، وقد تلاشى النعاس منها، لتعرف المراد، فتنتقل إلى الحواديت، تشبع نهمهما الخيالي، ممتاحة مما حفظته ذاكرتُها الطفولية من جدتها، ثم أمها، تنأى عن الجن والعفاريت، تحكي عن سندباد والشاطر حسن، وتقص حكايات الريف عن العبيطات السبع، فترتفع الضحكات

البريئة في سماء الغرفة شبه المظلمة، بل وتشق سكون ليل الإسكندرية الهادئ. ثم تسألهما: أيهما أجمل حكاياتي أم قنوات اليوتيوب ومسلسلاته؟ إجابتهما حضن طويل لها، ثم ينامون جميعهم مستدفئين، وفي الصباح يتحرك أحدهم، فينتبهون جميعهم، ليبدأوا يوما يتشمسون فيه على كورنيش الإسكندرية، إذا كان يوما مشرقا، وإلا فإنهم يجتمعون حول لحم أو فراخ تبرع حنان في شيّهما.

***

في يوم سفرها الأول، كانت تستقبل عامها الثامن والعشرين، تختزن كل ما يمرّ بها خلال الأربع والعشرين ساعة، فكل حدث جديد عليها، بل هو المرة الأولى لها: دخولها المطار، ركوبها الطائرة، تأمّلُها الكويت من علٍ: مدينة حديثة، طرقها سريعة، وأبنيتها منظمة، وإن كان حرُّ سبتمبر لاهبا في لفحاته عندما خرجت من مطار الكويت للمرة الأولى، لتركب سيارة جيب تابعة للوزارة، سائقها من بلاد شرقي آسيا يجهل العربية، يتنقل بمهارة بين السيارات في الطرقات، ثم تجد نفسها في مقر استقبال المعلمات الوافدات المؤقت: مبنى قديم يعود لسنوات الخمسينيات؛ أسقفه عالية، ومساحاته رحبة، ونوافذه بحواف حديدية طولا وعرضا، وزجاجها الملون.

ثمة من يقود المعلمات الوافدات إلى صالة واسعة، بها طاولات للطعام قُدِّمت عليها وجبات الطعام المغلّفة. أكلت دون شهية، فقد قرصها الجوع، فلم تمس طعام الطائرة، مكتفية بالشاي، فقد صدّعتها الزميلة

التي جلست بجانبها في الطائرة، ولم تفلح معها إجابات حنان القصيرة والنافية للمعرفة في آن، أن توقف تساؤلاتها عن الآني والآتي.

تتأمل رفيقاتها على طاولة الطعام، عيونهن تنطق استغرابا ودهشة، بل وتحمل التخوف مما هو قادم، يُضاف له نحيب بعضهن لفراق الأهل. يُكثرن من الاستفسار، ونادرا ما يجدن إجابة، فيهمسن متسائلات، ينتظرن إجابات دون سابق معرفة بينهن، فما جمعهن إلا هذا المكان، وهو وحده سبب تعارفهن، موقنات بافتراقهن بعد سويعات، ولكنها النفوس البشرية، ديدنها الفضفضة. ومع الهمسات الأولى، تظهر معالم من الشخصية، فثمة من تتعالى مؤثرة الصمت، وثمة من تثرثر تعلّق وتصف وتكرر، وثمة من تسكت. وكانت حنان من الصنف الأخير، زهدت في الكلام، منصتة على عادتها مع الشخصيات والمواقف الجديدة عليها. أنهين الطعام، ودلفت عاملات سمراوات، يرتدين بدلات عليها اسم إحدى شركة النظافة المتعهدة.

إلى قاعة أخرى انتقلن، ثمة موظفون يراجعون الأوراق، لمحت اسمها في الكشف: معلمة للمرحلة الابتدائية، أبدت استغرابها، ذكرت أن اختصاصها هو المرحلة الإعدادية في مصر، نظر إليها الموظف بلا اكتراث، وهو يجيب عن استفسارها بأن التوزيع للمراحل الدراسية ليس بيده. ولم يجب عن سؤالها عن سبل الاعتراض أو الالتماس، ومن ثم أخبرها عن السكن التي ستستقر فيه، بعد أن قدّم لها سلفة مالية، لتجد نفسها مع أخريات في سيارة جيب، وقد رصّ السائق الحقائب في الدابة الخلفية،

بعربية مكسرة يخبرهن السائق عن مكان السكن، ثم قطّب جبينه، وأنصت لموسيقى هندية، مثبتا ذراعه الأيسر على مقود السيارة، منطلقا بسرعة عالية.

في السيارة، جانب النافذة الوسطى كانت جلستها، تصلّبت عيناها على الزجاج الملون، وتكفّل هواء التكييف البارد بتجفيف حبات العرق في وجهها. شوارع فسيحة ندرَ فيها المترجلون، وقد أحكم قائدو السيارات إغلاق زجاج النوافذ من الهجير.

***

السكن الحكومي، عمارة شاهقة، حديثة البناء، لامع مدخلها وسلالمها. ارتقت حنان السلالم مع زميلاتها المستجدات؛ من تونس، والأردن، وسورية، استقبلتهن "أمينة" مشرفة السكن، في صالة شقتها في الطابق الأول، استقرت في أكفّهم زجاجات المياه الغازية المثلجة، ثم أخبرت كلا منهن عن الطابق والشقة والغرفة، مثلما حدثتهن عن اشتراطات السكن وقيوده، وشددت على موعد إغلاقه في تمام العاشرة مساء.

تبسطت "أمينة" في الحديث، فذكّرتهن بأنهن فتيات في عمر الزهور، في حاجة لمعرفة المزيد عن أجواء الغربة، ليدركن أن الغربة ليست نارا ولا جنة، تبادلن النظرات، وهي تعتدل في جلستها، وكأنها ستلقي محاضرة طويلة، بدأتها بإظهار حرصها على نصحهن، فهن أخواتها الصغريات، بعضهن عدن بأظهرن إلى الخلف، وأخريات اتكأن على أذرعتهن، فيما راحت أمينة تقصّ ما وصفته بأنه موجز عن حياتها في الكويت منذ فترة

قاربت ربع القرن، مؤكدة أنها حضرت عقب تخرجها من جامعة عين شمس مباشرة، وقد أنهت الجامعة وهي في العشرين من عمرها، لأنها خريجة مدارس أجنبية في القاهرة، وربما لها مستقبل مختلف لو عاشت في مصر.

تفرست المعلمات في تغضنات وجه أمينة، وأرهفن لصوتها الذي بدا أجشّ خشنا في بعض مخرجات حروفه، ليرجحن يقينا أنها في أواسط الخمسينيات. تلك هي الأنثى عندما تجد وجوه فتيات نابضة بالحياة والتفاؤل، وهن مقبلات على غربة، ينشدن وضعا ماديا مريحا، ربما يختصر طريقهن للحب والأسرة المستقرة، والمستقبل المطمئن.

صُدمت حنان بـــ "ربع القرن"، سخرت في سرّها، فما فراقها لصغيريها إلا مضطرة. تمعّنتْ في أمينة، وجهها شديد التجهم، على الرغم من تصنعها ابتسامات الترحيب، وهي ترغي وتزبد في كلامها، وكأنها تبحث عمن يسمعها.

يبدو أن أمينة غير مرتبطة أسريًّا، فلم تشر إلى أبناء أو زوج، بل حذرتهن من الرجال المتربصين، والأقارب الطامعين. جاء نصف كلامها وعظًا، والنصف الثاني تحذير، يضاف له إخافتهن من المستقبل، فقد يتورطن مع زوج يأخذ شقاء الغربة، أو تجد نفسها مضطرة للإنفاق عليه، إذا أحضرته ليعيش معها في الكويت، فيقضي يومه ممددا على الأريكة يقلب في القنوات الفضائية، مترقبا راتبها، مدعيا أن هذا كاف عليها، فقد تزوّجها بعدما قارب قطار عمرها على الفوات.

هن ينصتن بلا رغبة، وحتما كان على أمينة الانتباه، لتقلّبهنّ في جلساتهن، فحياؤهن منعهن من التعليق أو السؤال. سكتت أمينة، لم يتكلمن، فقررت الاكتفاء بما أوصت، مؤكدة أن هاتفها مفتوح أربعا وعشرين ساعة، فلا يتأخرن في الاستشارة.

تفور صدورهن بأنفاس حارة يزفرنها وهن يدفعن حقائبهن، وينتظرن دورهن في المصعد ليصلن شققهن. جرّت حنان حقيبتها، عندما وصلت إلى شقتها في الطابق السادس، تتوقع أن هناك زميلة تساكنها الشقة، وهكذا ألمحت المشرفة.

طرقت الجرس، فُتِح الباب، أطلت فتاة في منتصف الثلاثينيات من العمر، وجهها أبيض مستدير، جمالها هادئ، شعرها أسود غزير، ترتدي جلبابا بيتيا بلون أصفر زاهٍ، لهجتها شامية، عرّفتها بنفسها أنها سهام، من درعا بسورية، ترحابها راق، مزيج من الدعوات ثم الأمنيات، سهام بسيطة وتلقائية، تتدفق كلماتها بعفوية، أزالت كل الحواجز النفسية المتوقعة، فشعرت حنان بحميمية صداقتها. أخبرتها سهام أن الشقة غرفتان، لكل واحدة منهما غرفة، واستأذنتها لتعدّ كوبا من الشاي بالقرنفل.

خيرا استبشرت بها حنان، فقسمات وجهها نابضة بالطيبة ونقاء الطوية، هكذا كانت تقول أم حنان، فما في القلب بادٍ في الوجه، فلا تتنظر من قلب غشّاه السواد أن يكون وجهه نابضا بالنقاء.

شاكرةً تمتمت حنان، دفعت حقيبتها، لتستقر جانب الدولاب في غرفتها، تمددت على الفراش، احتوتها مرتبته الإسفنجية فغاص جسدها في

ثنيّاتها، الراحة تتسلل لخلاياها، بعد عناء يوم متصل من الحركة، ودون أن تطرف عيناها نعاسا، تمنت نوما عميقا، وإن تشقلب العالم من حولها. أدركت معنى عبارة "النوم سلطان" التي كان يرددها أبوها قبل نومه ليلا، وعند قيلولته، فلم يكن يتنازل عن حظه من النوم، وتكون كارثة أن يكون أحدهم سببا في إيقاظه عن موعده.

طرقات على الباب، يد سهام البضة تحمل صينية صغيرة، عليها كوب زجاجي من الشاي فاتح اللون، تفوح منه رائحة القرنفل، ومعها طبق من حلو الشام والمكسرات، استقرت الصينية على القومودينو، المجاور للسرير. تطلعت لها حنان بامتنان، وتمتمت بشكر وأدعية الخير. عادت سهام أدراجها، مكررة ترحيبها، فأجفان حنان مرتخية، والنوم يغزو وجناتها، ولا تزال بفستانها.

جذبتها نكهة الشاي، فحرّكت رأسها لأعلى، مستندة على خشب السرير الخلفي، وامتدت يدها لتضع المخدة وراء رأسها. ترتشف الشاي، متأملة ما حولها: غرفة واسعة مكتملة الأثاث، وفراش وثير. متوافرةٌ هي مسببات الحياة المادية، فراحة السكن نصف السعادة، ونصفها الآخر ما سيكون من غدها، عندما تذهب إلى مدرستها، وتشرع في عملها، وقد أعلمتْها أمينة أن سائقا باكستانيا يمكنه توصيلها لمدرستها، وزودتها برقمه، فهو يأتي أسفل البناية قبل السابعة صباحا، لأخذ زميلات لها إلى نفس المنطقة، وما عليها إلا الاتفاق معه، فلا مشكلة في المواصلات.

النوم يأبى أن يغزو جفونها، على الرغم من أن النعاس يغلق عينيها، والتثاؤب يلاحق حنَكِيها، فلم تنم منذ ليلتين؛ آثرت مواصلة الليل

والنهار في يومها الأخير في مصر، لتشبع من صغيريها، فلم يغادرا حضنها، بل كانت تتنسم رائحتهما: وليد في ذراعها الأيسر، يزاحم شقيقته الرضيعة في يمناها، تضاحك "وليد" ولا تكف عن اللعب معه، تارة بكفّيها، وتارة بأن تأكل بطنه بأسنانها. أما سمورة، فهدأت، مستمتعة بمداعبات أمها لأخيها، نطق وليد متعجبا: سمر يا ماما تضحك معنا.. انظري لها.

تطلعت حنان لرضيعتها: تشع عيناها صفاء وبراءة، بينما تلامس سمر بكفها ذي الأصابع الدودية وجه أمها، أناملها الدقيقة دافئة، وهي تداعب الذقن والخدين. أمومتها تنازعها، أن لا تترك رضيعتها، وتحرمها من حليب حنانها، وهي التي تلقف حلمتي ثدييها بشفتيها الغضتين، فتضمها بحنوٍ، وتهدهدها، وتغني لها.

أنهت رشف الشاي، النوم يعاند جفنيها، يتخاتل في عينيها وجه أمينة وهي تتكلم معهن بتؤدة، وكأنها تحاضرهن؛ لم تتلعثم، ولم تكرر جملة أو معنى، وكأنها أَلِفت هذه النصائح متواليةً منسّقة ملقّنَةً للوافدات، ربما تنفذ توصيات إدارة السكن الحكومي بالوزارة، بأن تتولى المستجدات بالرعاية والتوجيه، وهو ما تؤديه، مع مزيد من الاختيال؛ لكونها تمتلك في الغربة تاريخا وخبرات متراكمة.

لاحقا، عرفت حنان عبر الهمسات والجلسات أن مشرفة السكن "أمينة"؛ كانت على جمال وأناقة في شبابها، قبل تيقنها بتساوي الغالي مع الرخيص، وأن الجميع يترقبها، لذا، فإن الشك ديدنها، ولسانها أداتها، فلا ترحم خطيبا تقدّم إليها، فإما أن تقوم بسلقه باتهامات متلاحقة بالطمع

فيها، أو تقوم باختباره في لقاءات متعددة معه، وفي كل مرة تعرف المزيد عنه، ثم تنقلب عليه، فلا تترك مجلسا إلا وتفضحه.

تعاظمت وحدة أمينة، والتوت نفسيتها، وتحدّبت طباعها، وما رأته حنان في جلستها الأولى معها، إلا غطاءً براقًا. وهكذا ذكرت لها رفيقات السكن، وزدن بعضا من بهارات النساء، فما نصائح الست أمينة إلا قائمة منحوتات، ملّوا من تكرارها، في اجتماعاتها المتكررة، شهريا ونصف سنويا.

أيضا، همست المعلمات ساخرات بأن زهايمر مبكرا أصابها، أو ربما هذه أعراض مَن لم تعش حبا أو تجرّب زواجا، متعللة بالقدر، فلها فلسفة تبرر لنفسها مآلات الوحدة، وتعلل تسرّب سنوات عمرها، بأنها راضية بمواجهة قسوة الخريف وحدها.

واكتشفت حنان أيضا أن هذا حدث مع كل من سبقنها أو لحقن عليها، راكمن الأموال، وشككن في العرسان، وآثرن العنوسة، لتصبح غربتهن مجرد ذكريات تتكون، ثم تُجتَرُّ، إما مع أنفسهن، أو في حكاياتهن.

***

أدركت حنان - بعد تتابع سني غربتها- تفاهة ما تتحسب له العزباء، فإن كانت الأحلام رحبة، فإن الصدر ضيق، وإن كان المال يتراكم، فإن العمر ماضٍ، والجسد مترهل، والقلب خاوٍ، والروح تكتم شوقها للأمومة. أما الرجل، الذي هو الحبيب والزوج، فهو يصير شبحا يتعاظم الخوف منه؛ لمن

أغلقت قلبها، وآثرت الطرق التقليدية، فلا مجال لأن تنشئ حبا، كأيام الجامعة، تقضي الساعات معه على شاطئ الخليج، يحلمان بالمستقبل. والسؤال الآن: لماذا الحلم إن كان تحقيقه ممكنا؟

كثيرات ممن عاشرتهن، تعاملن مع الزواج وفق نظرية السوق، لماذا تشتري من المرة الأولى، فلتنتظر حتى تصل إلى آخر تاجر؟ لعل هناك من هو أفضل وأجود. فمنهن مَن تريثن، بدعوى أنّ مَن تسرّعت ندمت، ونظرن إلى أن سنوات العشرينيات في صالحهن ماديا، فلماذا تخسرها؟ فلتعش أيامها.

أما هي، حنان، فهي تمتم شاكرة الله دون شفافية أو بوح عن تجربتها؛ بأنها اغتربت بعد زواج وإنجاب، مقررةً أن حالها يخالف غيرها من فتيات جئن في ربيع عمرهن، ولبثن إلى ما بعد الخريف، زاملنها في السكن أو العمل، بعضهن انتقلن، وأخريات تقلبت مشاعرهن نحوها، ولكنهن جميعا ظللن في الغربة، يتحصنّ بالمال بعدما تسربت السنون. وقد اشترين الشقق، وفرشنها على أعينهن، قطعة قطعة: من غرفة النوم والزهور، إلى الأجهزة والأطباق؛ ومع ذلك تجادل الواحدة مع من يتقدم لها في ملكية الشقة، وفي قضية الإنفاق. والغريب أنها لا تملّ عندما تقوم بتنظيف شقتها من التراب المتراكم في إجازتيها السنويتين: نصف العام وآخره، وكأنه واجب عليها، مثلما أن من واجبها ملء الحقائب بالهدايا للإخوة والأقارب، معلنة أن أشقاءها هم الباقون لها مع ذراريهم، بعدما رحل الوالدان. وهي تعلم يقينا أن إخوتها يتحسبن لإرثها.

إنها دورات الحياة تتشابه، وتصدق مقولة إن التاريخ يعيد نفسه، تاريخ الأمم، وتاريخ الشعوب، وأيضا تاريخ الأنثى.

***

حياتها في الأسابيع الأولى: التزام بالحضور اليومي في مدرستها، ساهمة شبه صامتة، فضّلت أن تظل على تحفّظها إلى حين، فزميلاتها يتوزعن لجنسيات عدة: مصرية وكويتية وسعودية وأردنية وسورية وتونسية، يتلاقين في المشترك بينهن، تقاربت في أشهرها الأولى مع المصريات، وكما يقال "الدم يحنّ"، قبل أن تندمج تدريجيا مع بقية بنات العرب، لتكتشف أن الأنثى واحدة، والتقاليد متشابهة، فأقطارنا وطن واحد، وإن تعددت المسميات والرايات، ولأول مرة تدرك معنى الأمة العربية، وهي التي وعت على إعلام مستعرّ، وشعارات لا تتحقق، فهي من الجيل الثاني، الذي يسمونه جيل الانكسارات والتمزق، أما أبوها وعمّها وبقية العائلة، فهم الجيل الأول الذي تشبع بالقومية العربية، وحلموا بالانتصارات، قبل الصمت، ثم الانشغال بمشكلات العائلة وتفرّقها، وظلت الحقبة القومية مجرد ذكريات نادرا ما تُستحضر.

فائدتها الأولى من التواصل العربي هو خروجها من إسار القطرية المصرية: اللهجة والحدود والتصور، والفضل الأوّلي يعود لسهام، هذه الشامية الدرعاوية، التي عرَفتْ حنان على لسانها قاموسا لا ينتهي من كلمات فصيحة، معدودة ضمن المهجور والغريب، ولكنها نابضة بالحياة، وإن أخذت بعض الوقت، كي تفهم المفردات والتراكيب، التي لا تكفُّ سهام

عن إيرادها بطريقتها التلقائية، وتوقفها حنان في كل مرة، مستفسرة، أو فاغرة فاهها، فإما أن تكون المفردة أو التعبير جديدين، أو أن كليهما غير مفهوم. وتلك حالة معقدة، تستدعي أن تترجم سهام كلامها باللهجة المصرية التي تعرفها من المسلسلات والأفلام، أو تصوغها بالعربية الفصحى.

"بلاد العُربِ أوطاني، وكل العُرب إخواني، وبنات العُرب أخواتي"، هكذا تغني حنان، بعدما تعددت صديقاتها من جنسيات عربية مختلفة، كلٌّ منهن تحمل أملا وألما، وإن اختلفت الهموم لاختلاف الأعمار، وتنوّع التبعات، لتكتشف أن الغربة ميدان التأمت فيه إخوة العرب، وما أجمل أن يجتمعن على إفطار في القسم، شريطة أن تعدّ كل معلمة أطباقا شعبية من فطور بلدها، فتكون المائدة التي هي إحدى طاولات القسم الطويلة؛ مغطاة بمفرش بلاستيكي عريض، مرصوصة عليها أطباق الفول المدمس الخلطات المصرية، والحمص بالخلطات السورية واللبنانية والأردنية، ناهيك عن السلَطات والزيتون والفلفل الحار، والفلافل الساخنة المصنوعة من الفول أو الحمّص، والبيض المقلي والمسلوق والمخفوق، وألوان من الجبن: الأبيض والأصفر والأحمر، وتبرع حنان في صنع طبق من المشّ المصري، تأكله وحدها، وتصرخ حين تأكل الشطة العنيفة، التي أكثرت منها في جبنة المش، وخلطتها مع الشرش، فخرج شديد الاحمرار، عظيم الأثر، تصرخ ويضحكن عليها، وهذا لا يمنعها من الطواف على مختلف الأطباق التي أمامها، أما هن فيكتفين بالتذوق الاختياري.

***

لا تزال حنان تذكر الشهر الأول في اغترابها، تؤوب من دوامها الصباحي، فتلزم غرفتها، إلا من حوار محدود مع رفيقتها سهام، التي علمت سبب عزلتها، فلم تضغط عليها، وآثرت تركها، موقنة أن الزمن كفيل بإنهاء ألمها، أو تخفيفه، وهي تشابه غيرها، ممن عرفتهن سهام في غربتها التي سبقت حنان فيها، وكلهن بلا استثناء هدأن، وانشغلن بإيقاع الحياة الجديدة، وصخبها، وأيضا صراعاتها.

فضفضت لها حنان مرات بأن صراخ رضيعتها يطنّ في أذنيها، فتذكّرها سهام عليها بأنها جاءت من أجل زوجها، والحمد لله أن الله يسّر لها هذه الفرصة، التي جاءت في وقتها، وتردف:

- ولم يكن أمامك يا حنان إلا السفر، فهل ستقبلين أن يعيش ولداك أيتاما؟.

تلك الحقيقة التي تنزل بردا وسلاما على فؤاد حنان، مدركة أن "سهام" لم تصبح مجرد جارة في السكن، وإنما صديقة وأخت، تبوح لها، ومرآة تنظر فترى ذاتها، تصدقها القول والنصح، فهي تكبرها بسنوات؛ أنضجت عقلها، بعدما عركتها الحياة، ونصبت لها فخاخا، أشد بكثير مما عانت حنان.

ورويدا رويدا هدأت حنان، فسمر البنوتة استكانت لجدتها، التي باتت مقيمة مع ابنها، وحفيديها، وتضحك وهي تحدثها في الهاتف، وتخبر حنان بأنها أمهما الثانية، ومن حقها أن تشاطرها فيهما، فحنان أمهما التي ولدتهما، أما جدتهما فهي التي ربّتهما، وقد ملآ حياتها. تصحب الجدة

"وليد" إلى مدرسته المجاورة للمنزل، وتظل طوال اليوم تهدهد سمر، التي نضجت ملامح وجهها، لتكون طبق الأصل شبها لأمها.

وعندما نزلت حنان في أول عطلة لها، خلال إجازة منتصف العام، لم تعرف "سمر"، التي كبرت وحبَت، وراحت تناغي وتضحك، وقد نما شعرها، وانتهى بتوكة أعلى الرأس، كأنها أغصان شجرة ناعمة الأوراق. تطلعت سمر لأمها بعيون بريئة، وسرعان ما ارتمت في أحضانها. داعبتها حنان، فاستجابت لها البنوتة مباشرة، لم تخف، ولم تستغرب ملامحها، بعد تغيب خمسة أشهر كاملة عنها. ربما رائحة الأم لا تزال في أنف سمر منذ أن كانت ترضعها من صدرها.

***

عملها منهك مع التلاميذ في المرحلة الابتدائية، فلم تعتدْ على سبل تعليمهم، فإن عاملتهم بأمومة وضحك، فإنهم يعتلون الطاولات في الصف، يستغللن طيبتها التي بدت لهم ضعفا، وما إن تنتهي الحصة إلا ويشعلون الجو صياحا، ويملأون الممرات لعبا؛ وإن قست عليهم، تجد لوما من رئيسة القسم والإدارة. تطلّب الأمر خبرة ومرانا، ولأنها معلمة موهوبة في الأداء، كما أخبرتها مديرتها وقتئذ، طالبة منها الصبر، فإن تدريس الابتدائي متعة، شريطة أن تعي كيف تدير صفّها، وتجذب تلاميذها، وتمنع هرجهم وضجيجهم.

لذا، سرعان ما التقطت السبل ممن سبقنها في المضمار، وطبعا تطوعت فريدة العزيزة وانبرت توصيها بإسهاب ممل في دروس يومية، احتملتها

حنان حتى تعلّمت أسرار الأداء الصفي: حزم وابتسامة، إخافة وعقاب، جدية وإثابة. وهو ما حقق لها ثقة وإشادة، وجعلها تدرك أن القدَر هيأ لها راحة، فأطفال الابتدائي أشبه بالعجين، تشكله كما شاءت، وما عليها إلا أن تخطط للتميز، كي تثبت أقدامها في المرحلة، ويشار لها بالبنان وسط زميلتها، فبيئة العمل تحمل تنافسا، غالبه محمود، وقليله منبوذ.

والمعلمة التي لا تنافس، تحتل ذيل القائمة، وشخصية حنان لا تقبل الغمط ولا المؤخرة، ولا أن تكون من الهامسات الحاقدات. ولذا، فقد نفرت قرون الاستشعار فيها، ساعية إلى ابتكار، يعزز وجودها، وهو ما تم سريعا، في درس ريادي، قدّمته عقب عودتها من إجازة نصف السنة، واتخذت من اللعب سبيلا للتعلم، مستخدمة عدة ألعاب تعليمية، منها ما قامت بتصميمه بنفسها، ومنها كلّفت به بعض تلاميذها. كانت ألعابها غنائية وحركية وكتابية، أهمها لعبة يكمل التلاميذ كلماتها الناقصة، فيضاء نور بالأخضر إذا كان مصيبا، وبالأحمر إذا كان خاطئا. ثم لجأت إلى الأغاني، فمنها ما هو فردي غنّته، وغنى وراءها كل الفصل، ومنها الكورال من التلاميذ، الذين أنشدوا حروف الجر والعطف، بموسيقى مصاحبة، ثم أجابوا عن الأسئلة بسهولة، وكانت الحصة متعة متصلة، تنقّلت فيها حنان بين أنشطة تعليمية متعددة، وجاذبة.

صفّق لها كل من حضر، وقد ظهرت براعتها في إدارة الصف، وعلاقتها الراقية بتلاميذها. عانقتها المديرة مهنئةً هذه المعلمة الشابة المتحمسة، وألقت لها رئيسة القسم قبلات في الهواء، فهي مستجدة فاقت السابقات

عليها، إلا أن حنان كانت من الذكاء، عندما شكرت في نهاية حصتها كل زميلاتها في القسم، اللائي نصحنها، ووقفن معها، وأصرّت على أن تكون بينهن، عند التقاط الصور الجماعية.

❊ ❊ ❊

(٦)

تقلّبت الدنيا ببيتنا: مرضت أمي؛ اغتمت نفوسنا، اكفهرت وجوهنا، ضاقت صدورنا، فمرضها جاثم علينا، وألمها يتضاعف وجعا في أعماقنا. كلٌّ منا يسترجعها في نفسه: لمساتها الحانية في تربيته وتوجيه وتبصيره بالحياة. لعل الدرس الأبرز الذي لقّنته لنا أمي، أن كل ما يصيبنا هو قدر الله، إذا كان مسرةً فنشكر الله عليها، أو كانت مضرة فهي من أنفسنا. خلافا لأفكار نساء العائلة، وبنات جيلها، يكتمن ما ينعم الله عليهن، وتفور ألسنتهن بالشكوى، دفعا للحسد، ودرءا للعين، واتقاء لما يسمونه "النفسنة". وعندما نعدد لأمي نظرات الرصاص من النسوة، وكلماتهن الحادة؛ تبتسم راضية، وتتمتم: "صدق الله في قرآنه، وكذب الإنسان في أوهامه".

- الحمد لله، على ما قدر، ولا رادَّ لقضائه.

إنها مقولة أبي، فالمرض يتعاظم بأمي، وقد اشتد السكر عليها في سنواتها الأخيرة، وتركت الحبوب إلى حقن الأنسولين، ووهن جسدها، وندر الشحم في كتفيها.

جمعنا أبي حوله؛ أنا وأختي وأخي، وأمي ممددة في فراشها، ودموعنا تحفَرُ خطوطا على خدودنا نحن البنتين، وأخي لم تغادر دمعاته مآقيه، أما أبي فهو عزيز الدمعة، وقد أسرّ إلينا بحزم:

- شدة وستزول إن شاء الله، وليس أمامنا إلا الدعاء والدواء.

وقفنا ساعتها وسط صالة شقتنا، لأول مرة كنا أربعة، أبي وأخي في جهة، وأنا وأختي نقابلهم. افتقدنا أمي؛ خامستنا، وإحاطتها لنا بذراعيها، عندما كانت تحتوينا بكلماتها وضحكاتها وذراعيها، أثناء احتفالاتنا الأسرية: بنجاح أو عيد ميلاد أو عيد زواج بابا وماما، أو في لمّتنا للغداء أو العشاء على سفرة بيتنا المستديرة، أمي تجاور أبي، تخدمه وهي بجانبه، توزّع ما في الصواني علينا بنفسها: اللحم أو الدجاج أو السمك، متلهفين لطبخها ذي النكهة الجاذبة، فلها أكلاتها الخاصة في طواجن اللحم، وأيضا في الفتة والكوارع، أما السمك ومشتملاته: الشوربة والأرز والسلطة والطحينة، فإن كل من تذوقها في ولائم بيتنا؛ مدحَ وشكرَ وحلفَ أنه ألذ ما ذاقه في حياته.

خمسة نحن، عدد أصابع الكف، ومما تميّزت به أسرتنا، أننا أينما التقينا نحيي بعضنا برفع كفّنا اليمنى، في الشارع، أو على سلالم العمارة، أو على شاطئ البحر، أو في الحدائق، نسميها "التحية الخماسية"، قبضة اليد نحركها في الهواء، وكأننا نطيّر السلام عن بعد، فإذا اقتربنا من بعضنا، كانت أمي تطبع قبلات على خدودنا.

فكرة تحيتنا الخماسية تعود لي بلا فخر، عندما حضر أبي وأمي حفل تكريمي في مدرستي الابتدائية، كنت في الصف الرابع، لم أتجاوز العاشرة، أقف مع طابور المتفوقات وسط ساحة العلم، ضفائر شعري تداعبها نسمات الربيع.

حيّتني أمي بقبضة كفها الأيمن وهي جالسة في مقاعد أولياء الأمور إلى اليمين من الساحة، وقلّدها أبي الذي كان يجاورها دون قصد منه، فرددت

التحية برفع يمناي وأنا أضم قبضتي. ساعتها تولّد خاطر في نفسي؛ فالكفُّ معبر عن عددنا في أسرتنا. وهكذا قلت لهما ونحن في طريق العودة لمنزلنا، أسير في المنتصف بينهما، وأحمل شهادة التقدير، والهدية التي حصلت عليها، مال كلاهما عليّ وقبّلاني، ماما تقول لي وهي تلاعب شحمة أذني بسبّابتها وإبهامها:

- آه من البنوتة الشقية، لمحاتك ذكية.

وتحسس أبي ضفائر شعري، والشرائط الحمراء المتدلية منها، وهو يقول:

- جمال وذكاء وأصل وشقاوة.

وعندما وصلنا المنزل، اكتمل عدد الكفّ؛ بإقبال أخي وأختي يحضناني، مهنئين لي على نجاحي الباهر في المدرسة. وانتشر الخبر في العائلة، فصار اسم أسرتنا "الصيّاد الخماسي"، وتحيتنا خماسية. حاولت أسر أخرى تقليدنا، ولكن ظللنا نحن الأصل، وكل ما عدانا نسخ باهتة. أما ثلاثتنا: حنان، حسين، منى، فكانت أغنيتنا التي نترنم بها في لعبنا على سطح البيت، أو في الشارع في ليالي رمضان، أغنية شادية وشكوكو وإسماعيل ياسين:

" إحنا التلاته.. سكر نباته،

إحنا التلاته حاجة شرباتاته،

بالإنسانية مش بالتباته،

إحنا التلاته إحنا التلاته".

- كونوا كفّا واحدة في الحياة.

تلك وصية أمي في عزّ صحتها، ونحن متحلقون حولها، وأبي يضع نظارته على عينيه، يقرأ الجريدة اليومية، أثناء أمسياتنا عندما تدور أكواب الشاي علينا.

تهمس أمي موضحة أننا إذا ترابطنا في دنيانا، فكل ألم يهون، وكل شدة تنفرج.

لم ندرك معنى وصيتها إلا عندما تهاوى جسدها، ينخر فيه المرض، وقد كتم أبي –بداية- عنا كنهه، ولم نكرر تساؤلنا له، خشينا غضبته، فلو رغب لقال، وإذا ألححنا سيصرخ فينا. ذلك طبعه الذي ألفناه، يفضّل الصمت في البدء، ليعالج الأمر بهدوء، دون عصبية أو تشنج. لقد خشي علينا صدمة التهويل، التي تعني مزيدا من الدموع والخوف.

***

بدأت محنة أمي، بإغماءة تعرّضت لها وهي جالسة في مكانها المفضل على الأنتريه بالصالة. جسدها متراخٍ على الكنبة، رأسها مائل إلى الخلف، ذراعها الأيمن يتدلدل إلى الأرض وقد كان مبسوطا على المسند. كان كل واحد فينا مشغولا في غرفته، انتبهنا على صوت حركة غير عادية، أسرعنا إليها، والتففنا حولها: وجهها مصفرّ، وكفاها باردتان، شممناها بعض النوشادر، مع بصلة مكسورة، أفاقت، أنفاسها متقطعة، ويدها على قلبها، وتشتكي ألما في ذراعها. أوقفناها، فتسنّدتْ على أخي حسين، ومشت الهوينى، تمددت على سريرها، وبصوت واهن، ردّت على تساؤلنا:

- فقط أنام، وغدا سأكون بخير.

عاد أبي من الخارج، أخبرناه، فسارع بالاتصال بأحد معارفه من الأطباء، الذي حضر على الفور، أعطاها بعض الأدوية، وفي الأيام التالية، تتابعت زيارات الأطباء، ولم يعد جسدها قويا على الحراك، وتعاظمت شكواها بضيق التنفس، وطلبها أن نفتح النوافذ دائما. وكان واجب علينا حملها على كرسي، لننزل بها سلم البيت في الصباح الباكر، وقبل استيقاظ الجيران، للطواف على معامل التحاليل والأشعة، وفقا لما طلبه الأطباء، منها تحاليل هرمونات، وأشعة على الصدر والقلب، وقياس معدلات السكر.

عادت للمنزل، وعاد الأطباء لها ثانية، ثم تكاثرت علب الدواء بجوارها، المشروب منه مو ضوع على القومودينو، أما الحبوب والكبسولات فبجوار مخدّتها، تشرب وتبلع، ثم تخلد إلى النوم. عمّت المنزل كآبة، فغيابها عن جلستها المسائية وسط صالة شقتنا، يعني لنا خواء في لمّتنا الأسرية، وخوفا من وساوس سوداء، تقتحم مخيلتنا في يقظتنا ومنامنا.

الأطباء كعادتهم باردون، يتكلمون بإيجاز مع أبي، ثم يمضون، فينادي علينا أبي، ناقلا توصياتهم، محافظا على هدوء ملامحه. أدركت ساعتها قيمة الرجولة، أن تكون راسخا في الأزمة، فلا تهن عندما يضعف من حولك، فهم في حاجة إلى ثباتك لا بكائك، فاختفت دمعات حسين، وتماسكت أنا ومُنَى.

وصايا الأطباء: استمرارها في الراحة، ولفترات طويلة، وعدم بذل أي مجهود، حتى تتحسن عضلة القلب، مع نظام غذائي ومضاعفة الأنسولين لخفض نسبة السكر، وكذلك معدل ضغط الدم العالي، فثمة شبهة تجمّع

لسوائل حول القلب، وأيضا انسداد الشريان التاجي. تلك همسات الأطباء، وهم يتفحصون الأشعة والتحاليل، ويحددون مسارات العلاج، مؤكدين أنها في مرحلة متأخرة من تضخم عضلة القلب.

هل بدأ مرضها منذ أيام أو أسابيع؟ فديدنها أن لا تثقل علينا بشكواها، وكما تردد دوما أن المرض قربى إلى الله، وربما كانت تخلط ما بين أعراض ارتفاع ضغط الدم، أو السكر؛ مع الآلام التي تنتابها في صدرها. وفي النهاية هذا قضاء الله.

- -الحزن يوهن، ولا يشفي.

هكذا قال أبي. وهكذا فعلنا، فالمرض طال، وعلينا التعايش معه، ولا يمكن أن ترانا أمنا ودمعنا نازف. كنا معها في كل شؤونها الخاصة، ونسامرها أيضا في أوقات انتباهتها القصيرة، تنصت لنا، وتتعثر الكلمات على لسانها، فلا نرهقها.

عاد أبي إلى أسلوب حياته النمطي: قيلولة بعد الغداء، ثم الجريدة والتلفزيون، يطمئن على أمي فيقبلها قبل ذهابه إلى عمله صباحا، ثم عند عودته، وليلا قبل نومه، مرات تفتح عينيها الواهنتين فتودعه، ومرات تكتفي بهمسات له. عرفت ساعتها مدى الحب الذي يجمعهما، حب العشرة والتآلف. المتغير الوحيد في حياة أبي، أنه بات ينام على أريكة في غرفة النوم، منعًا لإزعاج أمي في رقادها على سريرهما.

عاد حسين إلى شلة أصدقائه، فهو مقبل على السنة النهائية في كلّيته، فأنا أسبقه بعام واحد، في حين تصغرني منى بثلاثة أعوام. أنجبتنا أمنا متوالين،

ثم حمدت الله على ما رزقها من ذرية، قبل أن يستحكم السكر الوراثي في جسدها.

وكما كانت تحكي: إن آخر ولادة لها وهي في الثامنة والعشرين.

وتسهب متذكرةً، على عادتها في سردها الشيق:

- -كنا إذا خرجنا للسوق، تكون منى على ذراعي، وحنان وحسين في يدي بابا. وفي صباح كل يوم، أذهب بمُنى إلى جدتكم (أمي)، وبابا يوصل حنان وحسين إلى الروضة. وهكذا عند رجوعنا من العمل. أعود لأعدّ غداء الغد، وأجهّز رضعات منى، ثم أنظف الشقة.

تلك حياة أسر الموظفين، لا بأس من عمل الزوجة، ليزيد دخل الأسرة، علما بأن أبي لديه ميراث جيد من عائلته في القرية: أرض زراعية مع إخوته، حافظوا عليها، فباشروها بأنفسهم، قبل أن يقوموا بتأجيرها؛ كي لا تنقطع زياراتهم للبلد، فمن العيب في عائلة ريفية الأصول أن تفقد جذورها الممثلة في أرضها، وبيتها الريفي.

تعبت جدتي، فتفرغت أمي لتربيتنا، فأخذت مرات إجازات أمومة، حتى اشتد عودنا، وذهبنا إلى المدارس، أحفر في ذاكرتي هذه الفترة المبكرة من طفولتي؛ هدهدة أبي الباقية في أذني عندما أعاند أمي، فينتصر لي ضدها. والفستان الأبيض بزهوره البنفسجية على حوافه، وقد كنت ألبسه وأتباهى به قدام بنات العمارة، وكأنني عروسة، ومرة ذهبت به إلى الحضانة،

ورفضت أن ألعب أي لعبة حتى لا يتسخ. وكنت إذا رجعت للبيت، أخلعه، وأعلّقه في الشماعة بنفسي.

تضحك أمي، وتقول:

- هذا الفستان تنقّل بين بيوت العائلة، عندما كبرتِ عليه يا حنان. أهديتُه لخالتك وهيبة، فلما صغر على ابنتها، ذهب إلى ابنة خالك مروة. كل هذا ولم يتمزق أو يتغير لونه. وعندما كنت أشاهد البنات يلبسنه، كنت أتذكرك يا حنان، ووجهك قمر فيه، وأقول لهن: هذا فستان مبارك، فلوسه حلال.

الآن، بعد مرضها، جلساتنا المسائية شبه صامتة، نكتفي بتقليب قنوات التلفزيون. نباشر رعايتها، نطعمها لقيمات أو شوربة، وقد تفتح عينيها أحيانا مصدرة همهمة، فنسارع إليها؛ تشير إلى ريقها الناشف، آخذها في حضني، فترتشف قطرات من كوب ماء دافئ أقرّبه من فمها، قبل أن تغمض عينيها من جديد. "كم أنتِ رقيقة في مرضك، حتى الأنين تمتنعين عنه، ويداك الحانيتان تربتان على كتفي كلما لامستك". تفرّ دمعاتي الحارة، لتلمس خديها، وأبالغ في احتضانها.

أبي النائم بالقرب منها ليلا، يسارع لها إذا جاءتها الأزمة، ويقول لنا:

- يكفيكما أن تكونوا معها طوال النهار، أما أنا فنومي خفيف بطبيعته.

أدركتُ وقتها كيف أن المرض كاشف لجوهر الإنسان، عندما يكون في أضعف حالاته، وينتظر من محبيه اهتماما، لا عطفا ولا شفقة. ذلك

الشعور الذي حرصنا نحن الأربعة على إيصاله لأمي؛ بأنك لستِ عالة علينا، بل نرد بعض جميلك نحونا. "إنه الواجب"، وهو ما يهمس به أبي كل يوم، ويخبرها باسما أنها تتحسن، وأن الأطباء يبشرونه بذلك. تنظر أمي له، وتشدد قبضتها على كفّه، وكأنها توصيه بنا.

***

إنها إجازة الصيف في عامي الأخير بالجامعة، لم يكن لنجاحي طعم لمرض أمي. ولكن وجب عليّ متابعة أمور تخرجي من الكلية، فاستلمتُ الشهادة وكشف الدرجات، وأعددتُ أوراقي للتعيين كمعلمة، خوفا من فوات دوري، وضياع حقي في الوظيفة. وإن كنت أعلنت لأبي أنني أريد البقاء جانب أمي، فلا يمكن تركها، وأنشغل بالعمل. إلا أن أبي أصرّ على متابعة أمر شغلي، فهذا مستقبلي، والأفضل استمرار حياتنا بشكل طبيعي، كي لا تشعر أمي بأنها سبب في إعاقتنا.

وأخبرني مستبشرا أن كلية أختي مُنى نظرية، ولا يُشترط المواظبة يوميا فيها، فيمكن أن تكون جانب أمي، على الأقل خلال الشهور الأولى من تعييني.

فكّرَ بابا بعقلية الموظف الحكومي، الذي يرى الوظيفة ملاذا وأمنا، خاصة للبنت إذا تقلبت بها ظروف الحياة. وكما يقول المثل: إن فاتك الميري (الوظيفة)، تمرّغ في ترابه. وها هو الميري قد جاء يطرق بابي. وعندما اعترضت ثانية، أكّد لي أبي أنه بعد الشهور الستة الأولى من تثبيتي في

الوظيفة، يمكنني أن آخذ إجازة بدون مرتب، وبذلك حفظت الوظيفة، ثم أعود إليها كما أشاء. "حقك لا تفرطي فيه يا بنيتي".

وها أنا في الغربة، أسترجع كلمات أبي ونصائحه، الذي لا يرى في الدنيا أبعد من مسار حياته: أمان وظيفي، وزواج تقليدي مستقر. وحتى عندما سافرت، أردت الاستقالة من وظيفتي في مصر، فرفض بقوة، وبعشرات الحجج، بل وتطوع قائلا:

- دعيني أنا أقوم بإجراءات إجازتك السنوية، فلا شيء مضمون في الحياة، إذا رجعتِ من الغربة متى شئتِ. الوظيفة ثابتة والحياة من حولك متغيرة.

ولأن أبي يشغل منصبا في مديرية التربية والتعليم، فإن وساطات أبي في المديرية لا آخر لها. يرافقني أخي حسين في استكمال مسوغات التعيين، وفي التنقل بين الإدارات، والمرور على المكاتب المختلفة، فكثير من الموظفين يشترط حضوري للتوقيع أمامهم، ولم تكن مشكلة، فالمصلحة تنقضي خلال دقائق.

أيام، ووصلني خطاب التعيين في مدرسة هي الأقرب من منزلنا؛ تلك إحدى نواتج منصب أبي، ومعارفه العديدين، الذين لا يؤخرون طلبا له. بدا هذا في استقبال الموظفين لي في المديرية التعليمية، حيث أتخطى الطوابير، لأجلس عند مدير الإدارة أو رئيس القسم، وأعينُ المنتظرين تحسدني على هذه الحظوة.

***

وجدت نفسي -مع مطلع العام الدراسي الجديد- معلمةً في مدرسة لا يستغرق الوصول إليها إلا عشر دقائق مشيا، بل إنها تجاور مدرسة أمي، التي تتابعت إجازاتها المرضية، ولم يرغب أبي في تسوية معاشها، فالإجازة المرضية حق لها، بما يعني استمرار راتبها، وإن ظلت سنوات. وأظن أن أبي تعمّد أن يضعني في مثل هذه المدرسة، ليتاح لي الاستئذان متى أردت، لأرعى أمي، وقد سمحت إدارة المدرسة لي، تعاطفا منهم، أو مجاملة لمركز أبي في المنطقة التعليمية.

شهور قليلة تلك التي تغيرت فيها حياتي، من طالبة جامعية إلى معلمة موظفة حكومية في مدرسة إعدادية للبنات، عالم ليس غريبا عليّ، فقد عملت متدربة في التربية العملية خلال العامين الثالث والرابع في الكلية، عشت فيها أجواء المدرسة، وتعلمت فنون التدريس، ومواجهة التلميذات دون خجل، وما أسهل تعليم البنات! لمعلمة تكبرهن بسنوات قليلة، أشعرتهن بالصداقة منذ أيامها الأوّل، وأمتعتهم بأدائها، التي هي موهوبة فيه. كما ولجت بين المعلمين والمعلمات، وحاول بعض المعلمين الشباب التقرب مني استلطافا أو صداقة، فكانت المعاملة الباردة في انتظارهم.

أصغر معلمة كنت بين زميلاتي في اللغة العربية، ولم أدرك أن هناك عيونا كثيرة تراقبني، وأنها كانت في انتظار فتاة عنوانها الجمال، بل إن طالبات المدرسة أنفسهن صرن يقلدنني في مشيتي وكلامي، ومنعتهن مريلة المدرسة من تقليد ملابسي.

صداقتي الأولى جاءت مع زميلتي في القسم فاطمة، تكبرني بسنوات قليلة، ربما كانت الأقرب لي سنا، وأيضا تلاقت روحانا، بعيدا عن المعلمات كبيرات السن، التي كانت تلقّبهن فاطمة بـــ "القرشانات". وهؤلاء رفضن الترقيات، خوفا من الانتقال إلى مناطق بعيدة عن سكنهن، وآثرن البقاء معلمات بجداول مخفّضة. ولذا، عندما ولجت القسم في المرة الأولى، وجدت نفسي محشورة على طاولة طويلة، لكل واحدة منا فيها درج، وهؤلاء المعلمات اللائي يذكرنني بـــ" المدامات" ربّات البيوت، في عائلتنا أو في بيوت جيراننا: السمنة، والحجاب والشعرات البيضاء المتسللة منه، والطباع الحادة، وكلامهن الذي لا يخرج عن مشاكل الأزواج والأولاد، وبعض أصناف الطبيخ.

فاطمة متزوجة منذ تخرجها، ولديها طفلان، حكت لي كثيرا عنهما، أحمد وأماني، وعن شقاوتهما التي تجعل عينيها في وسط رأسها طوال اليوم، فأيديهما لا تأتي إلا بالتخريب. وقد حكت لي عن تجربة مريرة، عندما وضعتهما للمرة الأولى في الروضة، وكانت فرحة لقربها من سكنها، وأيضا من مدرستها، ولكن القائمين على الروضة، اتصلوا بها، وأعادوا الطفلين بعد أسبوع مع النقود المدفوعة، لشدة شقاوتهما. فذهب زوجها، وحاول إقناع مديرة الروضة بقبولهما، وأنه سيكسر رأسيهما إذا اشتكت عليهما، والأهم زاد من عنده اشتراك الحضانة الشهري إلى الضعف، ولكن المديرة أخبرته أنها ستغلق الروضة، إذا فكرت مرة ثانية في قبول ولديه. فلم يجد أمامه إلا أن يذهب بهما ثانية عند والدته (جدتهما)، فهي الوحيدة التي تعرف طباعهما، وتتحملهما، لأنها ببساطة تعشق الأطفال الأشقياء.

زوجها معلم كيمياء في مدرسة ثانوية. حياته موزعة ما بين عمله في المدرسة صباحا، ودروسه الخصوصية في شقته مساء، يبدأ عقب الغداء، ولا ينتهي إلا بعد العاشرة ليلا، فيدخل البيت وهو كتلةٌ من الإرهاق، لا يطلب أكثر من العشاء والنوم.

لم أستفسر منها عن سبب هذا العناء اليومي، فهذا حال المعلمين في مصر، ففاطمة متفرغة بعد عملها الصباحي لولديها، وزوجها معني بزيادة دخل الأسرة.

***

عامان مرّا، تحسنت صحة أمي نوعا ما، وباتت تعتمد على نفسها في شؤونها الخاصة، ثم قررت التقاعد المبكر، فتطوع أخي لإنهاء إجراءات معاشها، وهي لم تكمل الخمسين عاما بعد. والحمد لله تخرج أخي حسين، وشارفت أختي على اللحاق به.

انخرطتُ في عملي بالمدرسة، وكان المتغير الوحيد الذي طرأ في حياتي تقدم العديد من العرسان إليّ، غالبيتهم كانوا معلمين، بحكم انتمائي إلى المهنة، والأقربون أولى بالمعروف، وقد تبدّى لي شبح حياة فاطمة، شديد الكآبة، بأن أرتبط بشخص من نفس المهنة، يتركني طوال اليوم وحيدة، منشغلا بالدروس الخصوصية أو المجموعات التعليمية. دار هذا التفكير، وأنا أجد العرسان يتقاطرون عليّ، يحدثونني بشكل مباشر، استطلاعا لرأيي، قبل التقدم بشكل رسمي.

حقيقةً، كنت أجد نفسي حائرة، فالنماذج التي أراها شخصيات جادة في الارتباط، منهم من يناهزني عمرا، ومنهم من يكبرني بعقد أو سنوات. بل

صرت عندما أجد شابا ينتظرني أمام باب المدرسة؛ ويقترب مني، أعرف ماذا يريد، وغالبا ما أعتذر منه، وأواصل طريقي، أو أخبره عندما أسمع منه رغبته، بأن القرار النهائي خاضع لتقدير أبي، فليتكلم مع أبي مباشرة. أفعل ذلك، على قناعة تامة بأن بعض من تقدَّم لي، ينتهزها فرصة كي نلتقي لنتعرف، والتعرف يستلزم مزيدا من الخروج، ثم عيش قصة حب مسبقة، قبل أن يتفضل لمنزلنا، ويتقدم رسميا، وتلك حجة بطلُها أفعى، وباطنها سم. ولذا، لم يتقدم إلى أبي بشكل رسمي إلا عدد لا يتجاوز أصابع الكف الواحد، هكذا أخبرني أبي بعدئذ، ويبدو أن هؤلاء العرسان، وضعوني ضمن دوائر اختيارهم، واقتربوا مني لجس النبض، وحسب المعلومات التي وصلتني بعد ذلك، فإن بعضهم أخبر كل من يعرفه بأنه جاهز بالشقة والمهر والشبكة، ويبحث عن بنت الحلال، وهذا منذ سنوات، ولم يصادف طبعا من يراها جديرة بالارتباط، لأنه كتلة من العقد النفسية.

فاجأتني فاطمة بما لم أتوقعه، ولم يخطر على بالي، وكما يقال: هذه هي القسمة والنصيب؛ بأن أخاها "محسن"، راغبٌ في التقدم إلي، وعرفت منها أنه يكبرني بسنوات سبع، ويعمل محاسبا في إحدى شركات القطاع العام في الإسكندرية، وقد حضر إلى المدرسة، وشاهدني بالفعل، واقتنع بأنني الأنسب، وأن ترشيح فاطمة لي كان في محله؛ جمال وأدب وأخلاق، والكل شهد لي في المدرسة وخارجها.

وحكت لي فاطمة أن عينها كانت عليّ منذ أن رأتني، وأنني الزوجة المناسبة لأخيها، ولطالما رشّحتني له، لأنه الولد الوحيد في أسرتها، وقد أجّل زواجه،

إلى أن يستّر أختيه، وباع من أجل تجهيزهما قطعة أرض ورثوها عن والده الذي مات منذ سنوات، وعرفت منها أيضا أنه رقيق وعطوف والأهم أنه "بيتوت"، ليس من ذوي الشلل والمغامرات وجلسات المقاهي، ثم أخرجت صورته، وقدمتها لي، فرأيته وسيما، بملامح هادئة، دالة على رزانة عقله، ورقي شخصيته.

ولأن العلاقة بيني وبين فاطمة كانت عميقة، بما يسمح لي بأن أتصرف معها كما أشاء، فإنني قلت لها، وكنا في القسم جالستينِ:

- دعينا نتمشى في الساحة.

فتساءلت عن السبب وهي تنهض معي، ولكنني آثرت الصمت، فظنت أنني سأواصل معها الحديث عن العريس، مشت وهي تغني بأغنية عايدة الشاعر:

"شفت العروسة آه، شفت القمر الله، شفت العريس أمّال، راجل سيد الرجال"، بل تكاد ترقص.

وصلنا إلى سور المدرسة الخلفي، حيث الحديقة، ثم استدرت نحوها، ووجهت إليها ضربات خفيفة متتالية، منها في الصدر، وأخرى في الذراع والظهر، مع رأسية في الجبهة. فصرخت:

- أنت مجنونة يا حنان.. حرام عليك.

فقلت لها، وأنا أنفض ما علق بفستاني من تراب وأوراق شجر:

- نحن صديقتان من زمان، لماذا لم تخبريني؟ أنا آخر من يعلم.

ضحكت كثيرا، وقالت:

- سامحتك، ولنفرض أنك لم تعجبيه، كيف سيكون تصرفي؟

عدت لضربها ثانية، وأنا أشيد بجمالي، وأنني عروسة قمر، "ألف من العرسان يتمنوني".

***

كان عليه أن يتقدم إلى أبي، بعدما تقصّى جيدا عن أسرتي، ثم توسّل بخاله الذي يعرف عمي، فأصل عائلته من ريف دمنهور، ومن ثم تحدد موعدا للقاء والتعارف.

إنه زواج الصالونات: العريس ببذلة أنيقة، ومعه والدته بحجابها التركي الأنيق، وأختاه وزوجاهما، ومعه خاله. الجلسة كلها رسمية، حافلة بالتقاليد المعهودة، والتي لا يمكن لنا تغييرها. فأبي وعمي وخالي أيضا ببذلاتهم الكاملة، وكرافتاتهم المعقودة جيدا، ودخل أخي أولا حاملا الحلويات والفواكه، ثم دخلت أنا حاملة صينية العصير، حضنتني أمه، وأطالت فاطمة في تقبيلي، وهي تهمس لي:

- -أهلا بعروسة أخي، أنا ضرّتك يا "حنّونة" من الآن.

فلم أستطع ضربها، واكتفيت بوخزة مني في كفها. تطلعت للعريس: بالفعل هو كما بدا في الصورة هادئ، غزير الشعر، فيه وسامة تشبع أية فتاة في مثل سني، يهمها التباهي بعريسها المفترض أنه "لقطة"، أما اختياره لملابسه فدالة على أنه أنيق بطبيعته، تكلّم خاله، وأعرب عن نيته في التقدم رسميا للآنسة المصونة التي هي أنا.

رحّب أبي به، وأنه تشرف بهذا النسب، وأبدى عمي حماسته للعريس، منذ أن سمع عنه من خاله، وتكلمت أم العريس، ودعت الله بالشفاء لأمي، وأنها ستزورها إن شاء الله زيارة خاصة، تكون قد تعافت فيها أكثر.

وفق الحسابات التي تشغل بال أي بنت، فإن "محسن" لا خلاف عليه، خاصة أنه ليس زميلا في المهنة، فهو محاسب في وزارة بعيدة، وسيكون وقت فراغه لبيته، فلا أجد نفسي وحيدة، وأنني سأجد حوارا مختلفا بعيدا عن مهنتي التقليدية، التي هي مهنة والديّ أيضا، فلا يمكن أن أرث المهنة، ثم يرثها زوجي المفترض، وأخشى أن يورثها أولادي أيضا. كنت أستبشع هذا التصور، وأستحضر مسامرات أبي وأمي، التي لا تخرج عن أجواء المدارس، وهموم المدرسين، وصراعات المنطقة التعليمية.

لا حجة لي في الرفض إذن، وكما يقولون: هذا هو النصيب، الذي هو تدبير رباني. وتلك كلمات أمي وهي في فراشها، عندما حكيت لها، فسمعتْ بسعادة، وأخرجت زغرودة متقطعة، حملت كل ما في قلبها الواهن من سعادة. وهمست لي:

- يا رب يتمم لك على خير، أريد أن أطمئن عليك في بيتك.

حضنتها وقبّلتها، كنت أريدها معي في مثل هذه الأيام، بنشاطها وتدبيرها.

الزيارة التالية للعريس؛ جاء للاتفاق على التفاصيل، فأعلم أبي أن لديه شقة في الطابق الثاني بمنزل أسرته، وأمه تقيم في الطابق الأول، الذي هو مرسى للأختين، متى جاءتا للمبيت أو الإقامة، أما شقته فهي مستقلة عن

شقة العائلة. وهذا ما أراحني، فلا أرغب في أية تدخلات عائلية، سواء من والدته أو أخته.

بقية الاتفاق المادي لا يبتعد عما هو سائد في مجتمعنا عن المهر والشبكة والمؤخر، مما ألفته الطبقة المتوسطة، أو بالأدق طبقة الموظفين.

آثر أبي أن نجلس معا، بعدما أنهى حديثهما الثنائي. دخلت في كامل زينتي. رأيت الإعجاب الشديد في عينيه. فجلست قريبة منه، وانتظرت أن يتكلم، ولكنه تمتم بالترحيب، وأحسست أنه الخجول ولست أنا، ثم تكلم عن سعادته بهذا الارتباط، ودعا الله أن يتممه على خير، وأنا رددت عليه بخجل. وانتظرته أن يكمل، فوجدت أن الكلام قد فرغ عنده، فتكلمت أنا وسألته عن شغله وعن هواياته. إجاباته قصيرة، واضحة، وكانت الملاحظة الأولى أنه غير متكلم، يحب الإنصات، ولا يملك التعليق. عكس شخصيتي الاجتماعية، فأنا أعشق الحوارات والنقاشات والتعليقات.

سريعا مرّ على خاطري شباب الكلية، من ذوي العلاقات المتعددة، لا تنطبق على "محسن" أوصافهم، فأدركت أنه بلا تاريخ، ولا جغرافيا، وكما صرّح لي بعد ذلك أن حياته في الكلية أشبه بالمرحلة الثانوية، قليل من الأصدقاء، وأصدقاؤه ثابتون منذ المرحلة الثانوية، ومن جيرانه في الشارع والحي. لم أعطه من شخصيتي إلا القليل: الحياء، والهدوء، والرغبة في الاستقرار الزوجي، وخجلت عندما أخبرني برغبته في الدخلة سريعا، فاحمر وجهي خجلا، والغريب أنه خجل أيضا، ولم يكرر السؤال، أو يطلب الجواب.

عاد محسن للكلام معللا السرعة في الزواج بأن والدته ستسافر مع خاله إلى الحج هذا العام، ثم حمد الله بأن اسمها طلعَ في قرعة الحج الحكومية، أي خلال أشهر قليلة.

وكان السؤال الذي هربت منه: هل هذا المناسب لي بالفعل؟، ولكنه عاد للإلحاح عليّ، عندما تطلعت للمستقبل، وأن هذا زواج إلى آخر العمر. فلم أتخيل نفسي مع رجل أنا أجرأ منه، وأوسع منه في علاقاتي الاجتماعية، وفي ذكرياتي الجامعية.

تحدثت مع أبي صراحة، فردّ عليّ بأنه إنسان طيب وخلوق، فأجبته:

- بابا، أنا لم أنفِ طيبته ولا أخلاقه، وإنما أحسست أنه روتيني، لا جديد في حياته، أي يسير حسب المسطرة.

فتساءل أبي بحدة:

- وماذا تريدين غير هذا؟ أنتِ مدحتِه بكل خير، ولم تذكري مذمة عنه.
- -دعني أتعرف أكثر عليه.

بغضب تساءل أبي:

- يعني تخرجان معا، وتجلسان على الكورنيش وفي الكافيتريات.
- لم أقصد يا أبي.. نلتقي في البيت.

هدأ أبي واسترد انبساط وجهه، وتكلم بحنكة، ساعيا إلى احتوائي، وكان محقا في موقفه، فلماذا ينقلب الأمر معي إلى عناد؟ وهو صاحب الحكمة

التي يرددها بأن الذي يمكن أن تأخذه بالرفق، لماذا تأخذه بالشدة؟ فجاءت كلماته قليلة، وبنبرة حانية، وهو يضمني إلى صدره، ويقول:

- -اسمعيني يا بنيتي، في فترة الخطوبة يتصنع كل طرف منكما المظهرية الكذابة، لن تعرفي زوجك إلا إذا عاشرتِه في كل أحواله، ستعرفين طباعه، وهو يعرف طباعك.
- -لم أفهم.

ابتسم أبي، وهو يستفيض شرحا:

- -خطوبتكما حوالي شهرين أو ثلاثة، وسيأتي إلى هنا بشكل مستمر، ومعك فرصة للجلوس معه، ولكن صدقيني، دعك من المسلسلات والأفلام، الخطوبة أكبر كذبة، هو يأتي في غاية الأناقة، راسما نفسه بأنه العريس الوسيم، وأنت تتجملين أكثر منه، والكلام بينكما سيكون عاما، عن تجهيز الأثاث وترتيب الشقة.

فتساءلت عن السرعة في إتمام الزواج، فرد أبي: ولماذا يكون التأخير وتلك رغبة أمك؟ فطول فترة الخطوبة يحمل مشكلات، وتكثر فيه الهمسات، وخير البر عاجله.

سكتُ، فأبي عميق الخبرة بالحياة والناس. ثم راح يؤكد لي أنه سأل عنه، فلم يجد عيبا في سيرته، أو في عائلته. فعادت الطمأنينة لقلبي، مع جمال منطق أبي.

إذن، لا مجال للتأخر في إتمام العقد والزفاف في ليلة واحدة، ضغطا للمصاريف، وأيضا فإن العريس استوفى كل المطلوب: نسبا ووظيفة حكومية وأهله طيبون.

كما نال موافقة مجلس العائلة، الذي لم ينعقد من فترة طويلة، اللّٰهُمَّ إلا من زيارات عادية لأقاربنا، وقد ندرت بعد مرض أمي، وانشغالات أبي.

اجتمع أقاربي سعداء بالزيجة المباركة، فالزيجات شحّت في عائلتنا منذ سنوات، ربما لأنهم جميعا من جيل واحد، ولا تزال ذريتهم في الجامعات أو في بداية حياتهم العملية. فكنتُ أول الفرحة، بل إن عرسي سيكون فاتحة لأعراس أقاربنا من جهتي أبي وأمي.

في مجلس العائلة، انبرى عمي بوصفه خبيرا في شؤون العائلات والأنساب، قائلا:

- -إن عائلة العريس لها مصاهرات من بعيد مع عائلتنا، وعائلات عريقة أخرى، فستكون بطاقة الدعوة حافلة بأسماء أعمامي وأخوالي.

اكتشفتُ في كل هذه المعمعة كم المظاهر التي تهم الكبار، وأنهم يعيشون حالة من الانفصام: فهم متعلمون وخريجو جامعات، ومن جيل عبد الحليم وفيروز ومحرم فؤاد، وحقبة رومانسيات الخمسينيات والستينيات، وحقوق المرأة وأهمية اختيار شريك حياتها. وفي الوقت ذاته، فإنهم يفكرون تقريبا بعقلية آبائهم وأجدادهم: الأصل والمركز والمصاهرات.

وأدركتُ أن القضية لا تتعلق بالجيل، بقدر ما تتعلق بالإنسان نفسه، الذي كلما تقدم به العمر، جنحَ إلى التقاليد، موقنا من خبرته في الحياة أن التقاليد سياج يحمي بها ابنته، ويختالُ بها أمام الناس.

وعندما تقدم بي العمر، أيقنت أنني سأزوج أولادي بنفس هذا المنطق، وأنني أسير وفق خطوط، هي في النهاية ما اتفق عليه العقلاء.

لا أنكر أنني فرِحتُ، بل كنت شديدة الفرح، فعرسي يعني الفستان الأبيض الفاخر، وسأكون أنا في حفلة العرس النجمة الوحيدة. كما يعني شقة خاصة لي، سأفرشها على مزاجي الخاص، أختار كل شيء فيها بنفسي، وسأجعل ألوانها متناسقة، وكل غرفة ستكون مختلفة عن بقية الغرف في تصميم أثاثها وألوان ستائرها، وأيضا في دهان جدرانها، إنها مملكتي الخاصة.

❊ ❊ ❊

(٧)

في السنة الأولى من غربتها، قررت حنان تعلّم قيادة السيارات، بل وأن تسارع بشراء سيارتها الخاصة، بعدما مرّت بموقف لم تهتز فيه، بقدر ما أدركت أهمية أن لا تترك نفسها لضغوط هي في غنى عنها.

كانت تلك المرة الأولى التي ستعود حنان من السوق وحيدة، فقد آثرت زميلتها سهام التجول في المولات والمحلات، لاستكمال شراء بعض الحاجيات، فيما عانت حنان من بوادر حرارة مرتفعة وصداع، ورغبت في العودة، فهي مقدمات لنزلة برد، تعرف أعراضها جيدا، فلتسارع لأخذ مسكنات، وشرب المزيد من الليمون الساخن، والاستدفاء في الفراش، قبل استفحال البرد، الذي إن مسّها، تعاني كثيرا حتى تتطاير فيروساته منها.

في الشارع العام خارج سوق الفحيحيل، أشارت إلى تاكسي، سرعان ما انحرفت سيارة نحوها، يضيء فوقها مكعب يحمل لفظة الأجرة بالإنجليزية، ومثيله بالعربية.

إنه ظلام ما بعد العشاء، أخبرت السائق بوجهتها، فأحنى رأسه موافقا. في المقعد الخلفي وضعت أكياسها، ثم اتخذت جلستها، إنها نصائح مشرفة السكن أمينة؛ أن تجلس في الخلف، فتكون حركات السائق تحت بصرها. استغربت إلى أن السائق لم يذكر لها الأجرة مقدما، بل انطلق بالسيارة، مسارعا بإغلاق نوافذها، بالضغط على أزرار بجانبه، فارتفع الزجاج سريعا،

ثم رشّ عطرا ملأ جوّ السيارة، وتهادت لسمعها موسيقى عذبة في إيقاعها، وكأنه أراد صنع جو رومانسي.

أخذتها الدهشة، السائق يرنو إليها متصنعا خفة الدم، راغبا في الحوار، وهو يمدّ إليها قطعة شوكولاتة. لهجته دالة على جنسية عربية، وإن كانت متداخلة بين أكثر من قُطر، وهو ما سهّل عليها لما قامت به، مستعينة بما سُكِب في سمعها بكيفية التصرف في موقف كهذا، لا أن تخطئ مثل فلانة التي انهارت باكية راجية، ولا علّانة التي تبسّطت في الكلام، علّها تصل سريعا، وخوفا أن ينزلها في منطقة نائية.

خفض السائق نظره أرضا، وأعاد ذراعه إلى مقود سيارته، وكتم كلمات كانت تتراقص على لسانه، مستبدلا إياها باعتذار سريع، وأنها قد فهمت مقصوده خطأ، فلم يشأ إلا أن يغيّر "الموود" الخاص بها، وقد رآها عابسة مُتكَدِّرة.

إن كل ما فعلته أنها ضغطت أزرارا في هاتفها النقال، فأسمعت السائق أزيزها، وهي تقول له: أرسلت رقم لوحة سيارتك إلى صديقتي، وهي ستتصل بالشرطة، فكن عاقلا، وإلا...وعندما وصلت للسكن، نزلت شامخة الأنف، وهي تلقي إليه أجرته، وعيناها تطلقان شررا. وهو يرجوها أن لا تؤذيه.

***

- قيادة السيارات هي خبرة حياتية مضافة لي؛ سواء كانت في غربة أو وطن.

وهكذا قالت حنان لسهام بحنكة، وهي تسارع بالنزول لتقابل مدرّبة القيادة التي اتصلت بها، لتعلمها أنها في انتظارها بسيارة التدريب أسفل السكن.

دعت لها سهام بالتوفيق، وهي تمطّ شفتيها مستغربة من جرأة حنان على تعلّم القيادة، وهي لا تزال في عامها الأول، أي ابنة البارحة كما وصفتها، فلماذا تنتظر لتعرف البلد أكثر، ولا مشكلة لديها في المواصلات.

ردت عليها حنان بالفصحى المضبوطة مؤكدة أن ما سينجز في الأعوام القادمة، لا بأس من إنجازه هذا العام. ثم غادرت الشقة، وقد ارتدت بنطالا واسعا، وبلوزة فضفاضة، فالملابس الضيقة قد تعوق حركتها في التعلّم.

المدربة أم حسام، وقد تعمّدت أن لا تذكر اسمها الحقيقي، مفضلة كنيتها، لأنها ببساطة تعمل دون رخصة، وسيارة التدريب تخص زوجها، وهي لا تسمح له أن يدرّب الحريم، وزيادة الخير خيران. هكذا حكت لها المدربة، وهي تبسمل وتحوقل على نباهة حنان وسرعة تعلّمها، فما إن أعلمتها بكيفية وضع قدمها على البنزين، وتحريك ناقل السرعة، وأن تضع كلتا يديها على المقود، حتى انطلقت حنان بالسيارة، تأخذ الدوارات والمنحنيات، وتجتاز المطبّات بسهولة. ضحكت حنان عاليا، فالقيادة يسيرة، على الرغم من حكايات زميلاتها، اللائي ارتعبن عندما ركبن السيارة، وبدلا من التدرّب في سبع أو عشر ساعات، أخذن عشرات الساعات حتى

زال الخوف تدريجيا، وتعاظمت بالطبع أرباح المدرّبات، وبعضهن يعززن تلك المشاعر في البداية.

بعد أسبوعين، سيكون موعد اختبارها، جاءت نصيحة كل من استشارتهم بأن تبحث عن واسطة، وإلا رسبت مرات، وقد لا تنال النجاح في سنتها. كان هما جديدا، جعلها تنغمس أكثر في واقعها المعيش، وتخرج من همومها.

نقّبت عن الواسطة، لتجد ضالتها في ولية أمر تلميذ عندها، راجعتها ذات يوم عند الاختصاصية الاجتماعية، متشكّرَةً لها، فالولد أحب العربية، منذ مطلع العام، ويقول إن السبب هو معلمته، التي تثقله بالواجبات، ثم توقع له في اليوم التالي بالنجمات، وتكتب له أنه بطل وعملاق وقوي وفائق. ابتسمت حنان، فما أجمل عالم الصغار! كل شيء ينقل للأمهات. تذكّرت ابنها وليد، عندما كان يعود من روضته ثم من مدرسته، ويدور خلفها، ما بين المطبخ وغرفة النوم، يحكي لها، وهو لا يزال بملابس المدرسة، عما فعل، وعن أصحابه: حواراتهم ومشاجراتهم، وعن معلماته ما فهم منهن وما تعسّر، وعمَّن مدحه، حتى يفرغ كل ما في صدره، ثم يتساءل عما سيتغدون به اليوم، فتسأله بدورها: لقد أخبرتك به في الصباح، وأيضا عقب غداء البارحة. فيضحك ويقول: نسيت. ماذا سنأكل يا ماما؟ تهمس في أذنه، ثم تعضه.

كانت خاطرة سريعة، تماست مع كلمات ولية الأمر، ربما لم تستغرق في زمنها إلا ثوان معدودة، ولكنها في أعماق ذاكرتها تتمدد لتكون سويعات.

كررت ولية الأمر شكرها، فتطلعت لها حنان، وهمست عن بغيتها، ابتسمت ولية الأمر، وهي تأخذ رقمها، وتبارك لها -ضاحكة- مقدَّما سواقة السيارة، وتسابق بها الرياح أيضا.

ليلة الاختبار لم تنم قلقا، وصلت في السابعة صباحا، اتصلت بالواسطة، ردّ عليها صوت رجالي، يتحدث بألفة، مؤكدا أنه في الطريق، دقائق وشاهدته أمامها.

شديد الأناقة، في زيّه الوطني: الدشداشة الشتوية البنية، والغترة الحمراء والعقال الأسود، ورائحة عطره زكية، تفوح منه. نظر إليها بتقدير، وهو يرحّب بها كثيرا، وعرفت من ثنايا كلامه، أنه أحد أقارب ولية الأمر، ويعمل في وظيفة مدنية مرموقة بوزارة الداخلية. أطنب وأسهب وعدّد، وهو ينهي الأوراق الأولى قبل دخولها ساحة الاختبار، فعلمتْ أنه ذو باع ونفوذ وقد جاء خصيصا بنفسه، ولم يشأ أن يرسل أحدا من طرفه، فهو يعلم يقينا أنهم يصعب أن تنجح من المرة الأولى، وأيضا استجابة لحجم الضغوط التي مارسها والد التلميذ وأمه عليه.

أصرَّ أن تدخل بسيارته إلى ميدان الاختبار، بينما راح يوزّع سلاماته على الضباط في قسم المرور، ثم بشّرها بالنجاح، على الرغم من أخطائها في ركن السيارة جانبا، وعللت ذلك بأن السيارة جديدة عليها، ضحك قائلا: "ولا يهمّك يا أبله، ولولا أنهم مشددون في قانونهم، لأحضرت لك الرخصة عند باب البيت".

أشار عليها أن ترتاح قليلا في مقاعد الاستقبال، وطلب من عامل المقصف أن يحضر لها عصيرا وقطعة كيك، حتى يتمم بقية الإجراءات.

دقائق، وكانت راكبة بجانبه، مقسما أن يوصلها إلى بيتها، وعندما ناولها رخصة القيادة مغلّفة بغلاف إضافي؛ صرخت غير مصدقة، تطلع إليها وقد بنى حلما، وتعشّم أملا، وهو يرى جمالا فاتنا، بابتسامة مرحة، ونظرات منها محملة بالامتنان والعرفان.

على الإسفلت الناعم يسير بتؤدة، وقد رفع نظارته الشمسية ماركة كارتير، فبدت ملامحه الخليجية: وسامة باللون الحنطي، شعر غزير، ملامح ضاحكة. لبقٌ في حديثه فوق العادة، دهشت كثيرا لشخصيته، وتحول مجرى الحديث إلى ذاته، وعن سفرياته، وأعماله الخاصة في مجال المقاولات والتجارة، وأيضا عن علاقاته في المجتمع، وأنه مكسب لكل معارفه، ويبدو أن القدر قد جمعهما دون سابقة تعارف.

فهمت الرسالة، ظلت منصتة، عائدةً بذاكرتها لأيام الجامعة: الشباب السكندري الفتِك الذي يجيد القول والفعل، وأيضا الشهامة واللياقة واللباقة، وطبعا يتفاخر مع جلسائه أنه بارع في إسقاط أي فتاة من المرة الأولى، وحتما قد أسقط وسيسقط غيرها، بل إن حكاياته ما هي إلا معاد مكرور، يتنقل بها من فتاة لأخرى. فهناك فئة من هؤلاء الشباب، يسهل اكتشافها، عندما تسكت هي مستمعة، ويظل هو يتكلم، حتى ينهي مخزونه. ربما ينجح بعضهم مع البنت الغضة، منعدمة الخبرة، التي يستهويها اهتمام شاب راق أنيق بها، ولكن حنان لها تدابير أخرى.

لا يزالان على الطريق، هي ثبتت بصرها على الإسفلت، حائرٌ هو ما بين التطلع نحوها، ومتابعة القيادة، حتى أفرغ كل ما في جعبته من مروياته، بل

تعب ونهج وأزبد؛ من كثرة ما استحثته حنّونة على إكمال ما لديه، ويتعجب من ردودها المقتضبة، وتمتماتها غير المفهومة. استفزه الموقف، ليجد نفسه ناطقا:

- -أنتِ جمال وحياء.

وجهها جامد، فأسهب طالبا منها أن تسمح له أن يكون مرشدها السياحي، للتعرف على الكويت شبرا شبرا. كانا قد وصلا إلى سكنها، فأوقف سيارته، فالتفتت إليه وبالغت في شكره، ثم فاجأته بإبلاغها إياه تحيات زوجها، الذي سيسعد حتما بالتعرف عليه، عندما تستقدمه إلى الكويت مع الأولاد. لم يتوقع زوجا وأولادا، ولكنه حافظ على انبساط وجهه، فلعل وعسى. ترجّلت من السيارة، وأولته ظهرها، لتلج بوابه البناية، تتبّعها ببصره، كاتما غيظه؛ لبرودها، ولكلامها الذي لم ينل به حقا أو باطلا.

تعلم يقينا أنه سيتصل بها، كمحاولة أخرى وأخيرة، فهل من اللائق إخبار ولية الأمر؟ حكت الموقف كلها لسهام؛ بعدما رقصتا كلتاهما فرحا، وهما يتفحصان بطاقة رخصة القيادة. سكنت سهام ملتقطة أنفاسها، مبدية تعجبها ثانية، لأنها نجحت في القيادة بعدما ملّوا من تكرار رسوبها، وهكذا روت لحنان، ليلة ذهاب الأخيرة إلى الاختبار، وحتى الآن فإن سهام في حيرة بين أن تشتري سيارة أو تظل على حالها.

عادت للتساؤل حنان:

- -وما رأيك فيما فعله صاحبنا؟

- -لا تعطه وجها، وليكن هاتفك مغلقا.
- -وهل هذا من الذوق؟
- -وفيم تفكرين أيتها العبقرية؟

آثرت حنان التصرف بشكل مختلف، فهو من الطراز الذي لا يخسر معركة بسهولة، وهو ما قد تم في اليوم التالي، حينما اتصل بها، ذاكرا أنها حتما ستحتاج إليه، فكانت نبرتها أشد برودة، وهي تقدم شكرا رسميا باهتا، خاليا من الروح والأنثوية؛ دفعه ألا يكمل حديثا، أو يمدد وصالا، ثم أنهت المكالمة، وهي تنظر لسهام: -بهذا يا عزيزتي، لن يتصل مرة أخرى.

- -وماذا عن خطوتك التالية أيتها البرنسيس؟
- ستكونين أول من يركب بجواري في سيارتي.

***

قررتْ الخروج من الدوائر الضيقة حولها، بعد أشهر عديدة أمضتها تعرفت على أجواء المدرسة والسكن وأهل البلد أنفسهم، خاصة دائرة زميلاتها في القسم، بعدما اتضحت معالمهن، وأن نفوسهن ما بين تآلف وتنابز وغيرة، وهذا متوقع في مجتمع يربو عددهن فوق العشرين، مختلفات الأعمار والجنسيات، وتتوسطهن أو بالأدق تتزعمهن فريدة، جميعهن يلتقين حولها، وبرغبتهن يدخلن تحت سطوة فروّدة، التي تنهي حصصها الأولى، ومن ثم تتفرغ لقعدتها المطولة، والمعلمات يذهبن ويأتين عليها، وهي تتلقى الأخبار عما يتم داخل المدرسة، وعما هو خارجها، أي يمنة ويسرة، وتعيد إنتاجها، مع مزيد من البهارات والتوابل، وعناصر التشويق.

بارعةٌ هي فريدة في إخضاعهن، فلا مجال لأي تمرد أو معارضة لها، ولا يصل معها الأمر إلى معاداة، ففي لحظة الصدام، تتأخر فريدة، وترفع رأسها ضاحكة، وهي تقسم بأغلظ الأيمان أنها تهرّج وتمزح، ثم تتابع نكاتها، ومدحها المجاني لغريمتها، التي لا تملك إلا دموع الحب والضحكة الصافية، ثم عناق، ليعود الوصال من جديد، وحتما سيشتعل الخلاف مرات أخرى، فذلك ديدن الحياة، وهو أيضا ديدن فريدة. ولأن حنان عرفت طبعها، ومواقيت صدامها، فقد آثرت أن تكون في المنطقة الوسطى، لا تقترب منها ولا تبتعد عنها، فإذا كان مزاج فريدة رائقا فما أحلى السمر معها! وإذا كانت هناك بوادر لـــ "زعابيبها"، فإن حنان تتسحب بعيدا عنها، ومعها غيرها.

فريدة من الذكاء لتدرك شخصية كل واحدة، وكانت تقول دائما: " لقد خبرتهن وعصرتهن جميعهن"، والحمد لله كانت حنان من المرضي عنهن من قِبلها، فاختصتها بعشرات مما تطلق عليه الست فرودة الشطورة "أسرارا"، وهي في الحقيقة قصص لمشكلات زوجية، أو مغامرات سرية نسوية، بعضها حب مكتوم مستمر ومتواصل؛ لأن نفس الأنثى تواقة للحب، ولا يمكنها العيش بدونه، وبعضها الآخر مما يطلقون عليه "مغامرة واحدة تكفي"، لكسر روتين الحياة، فلا داعي للتكرار، وهناك أيضا أسرار عن الخلافات المادية الزوجية، ما بين شح في الإنفاق، أو امتلاك الزوج لكارت البنك الخاص بزوجته المعلّمة "الشقيانة"، وحتى تصبح الزوجة وما تملك رهنا لمشيئة الزوج، بحجة أنه الرجل، الخبير بالدنيا، ولا يليق بزوجته مخالطة

الرجال لشراء شقة أو الدخول في مشروع، فيكون هو المالك الوحيد، لشقاء الغربة، وعناء السنين، وتتراكم الثروة، والمصيبة أن يرثه إخوته إذا لم ينجب الولد.

كانت حنان تغمغم مع نفسها بأن: "كل ما سبق مقبولٌ حدوثُه، ومتصورٌ وقوعه، ولكن غير المتصور أن تعرف فريدة هذا الكم من الأسرار، وكيف لها القدرة أن تبوح به، وتحكيه، دون ملل من التكرار".

والسبب بسيط في رأي حنان، ففريدة أشبه بمحطات الراديو، فلم يحدث مرة أن مذيعيها توقفوا عن الكلام، أو توقفت المحطة عن البث، إلا في حالات التشويش وهي نادرة في حدوثها، ومثلما أن فريدة تحب البثّ الإذاعي، فهي أيضا مثل جهاز الاستقبال الفضائي، تفتح أذنيها لكل حاكٍ وشاكٍ؛ ولكل معلّمة قرفانة من عيشتها.

نجحت حنان أن تكون من أهل القربى والحظوة عند فريدة، فقد "طوّفت" مع حكاياتها خلال سنوات وجودها بالقسم، وإلى أن ارتاحت منها الدنيا والبشر (القريبين) بتقاعدها، فقد باحت فريدة لها بكل شيء، بل إن ما وصل حنان من أسرار أضعاف ما حصلت عليه الصديقات الخلّص لفريدة، لسبب بسيط؛ أن حنان تجيد الإصغاء، دون كلل، مثلما تجيد طرح استفهامات ذكية؛ تتطلب المزيد من الاسترسال من قبل فريدة، وهو ما كان يتم بالفعل، وعادة ما تمتم لحنان:

- أنتِ يا بنت.. بلاّعة حكايات.

- الحمد لله يا فريدة على هذا الوصف منك.
- لماذا يا حنونة الحنانين؟
- خشيت أن تقولي عني بلاعة مجاري أو بلاعة رجال.

***

في تكوينها لصداقات خارج القسم تمهلت حنان، أملا في مصادقة شخصية مختلفة، تضيف لها، لا أن تكون حنان هي المتكلمة، والثانية كتلة سلبية تأخذ فلا تعطي، وتسمع فلا تتكلم، ناهيك عن أن تكون جاهلة بفنون الحياة ومتعها، عدوة للأناقة، شرهة للمال الذي تكوّمه متلذذةً بتوفيره، على حساب سنوات عمرها.

وجدتْ ضالتها في معلمة الموسيقى "روان"، التي تبتدئ دوامها مع طابور الصباح، حين تغدو إلى ساحة العلم، يتبعها الأولاد أعضاء فريق الموسيقى، حاملين معداتهم، إلى مكانهم المعتاد بجوار غرفة الإذاعية المدرسية، ليسهل توصيل أجهزتهم بالكهرباء. روان عاشقة للنظام، فلا يشذ تلميذ عن توجيهاتها، ولأنها اختارت فريقها بدقة، من تلاميذ عاشقين للموسيقى، فإنهم يتجنبون أية ملامح غضب قد ترتسم على وجهها، أثناء عزفهم على الأكورديون، أو ضربهم الطبول.

حبوبة روان مع تلاميذها، فتارة تصفق بيدها لتذكّرهم اللحنَ، وتارة تغني معهم وتصفّر، فإذا أعجبها العزف تكافئ التلميذ بقبلة أمومية تطيرها في الهواء له.

عادة، ما يقتصر دور فريق الموسيقى صباحا على عزف السلام الوطني، ثم أداء بعض الفقرات الموسيقية أثناء تقديم الإذاعة الصباحية. فإن أشارت لها المديرة بأن تعزف المزيد في يوم تكريم أو احتفال، فإن روان تعلّق الأكوردويون في كتفيها، فتتلهف لها آذان المعلمات والتلاميذ، فحتما سيسمعن عزفا فريدا يطربهم. يرقبونها وهي تمرر أصابعها بمهارة عالية، بأعذب الألحان، وغالبا مما تدندن بها، خلال سيرها في طرقات المدرسة، متعجبة من تقطيبة المعلمات وهن خارجات من فصولهن، لأن روان ترى الحياة بعين موسيقية: لعب وضحك وطرب وأيضا حب.

فلا عجب في إشراقة وجهها طيلة اليوم؛ فجدولها منحصر في حصتين لا تخرجان عن الخامسة والسادسة، أي في نهاية اليوم الدراسي، يفرح بها الأولاد، عندما تقودهم إلى غرفة الموسيقى، فحصتها أناشيد سهلة الكلمات مع ألحان عذبة.

عقب طابور الصباح، تمكث روان في غرفة الموسيقى، أو بالأدق منتجعها المفضل في نهاية الطابق الأرضي من ناحية الملاعب الرياضية. تغدو حنّونة إليها، إبّان فراغها المتقطع بين الحصص، حيث تتأمل -في كل مرة- الزخارف المزينة لجدران الغرفة: رسومات للآلات والسلم الموسيقي، وصور لكبار الملحنين.

حنان وروان يكفيهما أن تلتقيا، كي يتدفق الكلام تلقائيا، لا تعرفان كيف بدأ، ولا تدريان سببا لنشوء الحكاية بينهما، ولكن الكلام يأتي بدون مناسبة، ولا موضوع، ثم تغرقان في الضحك، بعدما تنتهي الحدوتة، بمقولة روان:

- توتة توتة.. خلصت الحدوتة، يا حنّونة.

تُقبّلها حنان في وجنتيها، لأن روان تنهي الحدوتة مع انتهاء وقت حنان، فهناك حصة تنتظرها، أساسية كانت أو احتياطية، أو نشاط عليها أن تقوم به.

"ما أروعك يا روان! أنت مصيبة، صاحبة مزاج عالٍ، لا تحرمي نفسك من شيء، تعيشين يومك وأمسك وغدك، أفخم الملابس، وأحدث سيارة، وفي نهاية الأسبوع تطوفين على المولات والكافيهات، تجلسين مستمتعة، وتتذوقين كل طعام جديد معلن عنه".

روان مطلقة منذ سنوات، وتعيش مع ابنتها في شقة خاصة، ولا تفكر في الارتباط؛ لأنها ببساطة لم تجد من يعجبها، أو بالأدق من تكمل معه بقية عمرها.

تذكّرها روان بأيام الجامعة؛ الرحلات والأغاني والألعاب الجماعية، والدم الخفيف،

وعندما تخبرها حنان عن ذلك، تؤكد روان على نفس الإحساس، وكأنهما فولة وانشطرت، ثم تندفع لتحكي لها عن ذكرياتها في كلية التربية الموسيقية بالزمالك، وما أدراكِ حي الزمالك! سكن الباشوات زمان، وسكن الطبقة الثرية الآن. وما أدراكِ يا حنان نوعية طلبة التربية الموسيقية! وقبل أن تسألها حنان؛ تندفع روان:

- -كلهم يتخيلون أنفسهم مطربين أو ملحّنين، فالشباب منكوش الشعر، ما بين حامل للعود إذا كان من عشاق الموسيقى العربية،

وهذا ملابسه تقليدية، أو حامل للغيتار إذا كان من عشاق الموسيقى الأوروبية، وهذا يلبس آخر صيحات إفرنجية.

تفغر حنان فاهها غير مصدقة، فهذه كلية مختلفة عما ألفته في الإسكندرية.

تواصل روان منتبهة إلى كنكة القهوة التركية التي أوشكت على الفوران، فتسكبها في فنجانينِ، ترتشفان كلتاهما متلذذتين، وتخرج روان عن سياق الحديث فتقول وهي تشير:

- -اشتريت هذه "السبرتاية" خصيصا، فلا نكهة للقهوة إلا على النار الهادئة.

تعود حنان لسؤالها عن ذكريات الكلية، فتكمل روان:

- -تصوري أن منهم عشاقا للموسيقى الإفريقية! يقيمون حفلات تشابه حفلات الزنوج.

تضرب حنان على صدرها، وتتساءل:

- وعلى ماذا يعزفون؟

تفطس روان ضاحكة، وهي تمثّل بصوتها ما يمكن تخيله:

- قولي أولا ماذا يلبسون؟! أنتِ في حفلة مع شيخ القبيلة، وتجلسين فوق جذع شجرة، والنار مشتعلة، والكل لابد أن يرقص، وإلا طُرِدَ من الحفل وحُرِم بركات شيخ القبيلة.

ضحك متصل، يظل مع حنان طيلة النهار، حتى أن تلاميذها يلمحون محاولاتها كتم ضحكها طيلة الحصة في عضها لشفتيها المنفرجتين ضحكا.

***

مفاجأة انتظرتْها، عندما رجعتْ من إجازة الصيف متأخرةً أسبوعا، فقد ظلّت مع ولديها بناء على طلبهما، وبالقطع سبقتها سهام في الحضور.

وضعت حنان حقائبها، ونادت على سهام لتعطيها بعض الحلويات السكندرية التي تعشقها، البسبوسة بالمكسرات، والهريسة. أخرجت حنان اللفات، واستبطأت سهام في الحضور، فأسرعت إلى غرفتها، تسبقها نداءاتها المنغمة، على صديقة غربتها.

طرقات خفيفة على باب غرفتها، لترى مشهدا لا يمكن أن يكون في غرفة سهام. ملابس وأشياء مبعثرة في كل مكان، وحقائب السفر لا تزال كما هي، لم تفرغها منذ عودتها. استغربتْ الموقف، فسهام لديها وسواس الترتيب والنظافة، وتكون كارثة أن تكون هناك فوضى في غرفتها أو في الشقة.

- سهام، هل سترحلين عني؟
- -نعم، وللأسف.

كادت حنان أن تلطم، لولا احترامها لذاتها ولصديقتها، فقد وصلت حنان اليوم، ولم تفعل أي شيء يغضبها، سواء اليوم أو حتى من قبل. لم تتركها سهام في دهشتها، فقد اقتربت منها، وتمتمت بأنها ستترك السكن، وتخشى أن تنسى شيئا.

- -تتركين السكن! ما الذي حدث عندما تأخرت عليك أسبوعا؟
- -ولا شيء حبيبتي، فقد يسّر الله لي الزواج للمرة الثانية، وأعددت أوراق استقدام زوجي، واستأجرت شقة في السكن الخاص. وطبعا سأحصل على بدل السكن من الوزارة، وهذا يساعدني على المعيشة.

الخبر صاعقة على حنان، فسهام ليست مجرد رفيقة في السكن، وإنما هي أخت وصديقة، عاشت معها تفاصيل حياتها في الغربة منذ حضورها، وعرفت كل خصوصياتها، ولا تخطو خطوة، إلا بعد مشاورتها، وغالبا ما تأخذ بنصحها.

حائرةٌ مشاعر حنان، لا تعرف هل تفرح لزواج أقرب إنسانة لقلبها في الغربة أم تحزن على نفسها، فالشقة ستكون جحيما بدونها. استجمعت حنان عزيمتها، وصرخت فيها ضاحكة مباركة لها:

- -مليون مبارك لك يا عروسة.. ولكنك نذلة، تتزوجين، دون أن تخبريني!

ضحكت سهام، وانشغلت بإعداد أغراضها وجمع حاجياتها، وشاركتها حنان، وراحت الأولى تروي عن العريس الذي تقدّم لها إبان عطلة الصيف، ووافق أهلها، فهو ينتمي لعائلة على صلة قرابة بهم، في نفس القرية بدرعا، وقد ألحّ والدها وأمها وإخوتها عليها، فلا مجال للرفض. وقالت عنه أيضا:

- -هو مُطلِّق، ويعمل محاميا في درعا المدينة، ومستعد للسفر معي إلى الكويت، وهذا أحد شروطي كما تعلمين، فلا أريد زواجا وأظل في غربتي وحيدة، وأريد المسارعة في الإنجاب، فعمري الآن قارب على الثامنة والثلاثين، ولا مجال للتأجيل.

واضح أن الموضوع جاء بسرعة، ولذا وافقتْ سهام، فقد كانت شديدة الشوق للإنجاب، بعد فشل زواجها الأول، لعقم الزوج، ثم انشغالها بسفرها للكويت.

سألتها حنان:

- وماذا عنه؟

فهمت مقصدي، فأجابتني:

- أنجب ثلاثة أولاد من زوجته السابقة، ولكن المشاكل بينهما وصلت لطريق مسدود، والطلاق حل شرعه الله.
- ومتى سيأتي للكويت؟
- خلال يومين، وأريد أن أنقل أغراضي إلى الشقة، حتى أرتبها قبل وصوله.
- هل تحتاجين أية مساعدة مني؟

تطلعت سهام إليّها، ما أشد الفراق! انسحبت حنان من أمامها بهدوء، آثرت الذهاب لغرفتها، تعرف سهام سر انصراف صديقتها، فهي تقرأها من قسمات وجهها، وكما كانت تقول لها دائما: "أنت كتاب مفتوح يا حنان،

من يقترب منكِ بحب، يفهم شخصيتك سريعا". أرادت حنان الانفراد بنفسها باكية، فالموقف برمته يستلزم منها بكاء، حتى تُفرِغ ما في أعماقها، قبل أن تهدأ.

كلتاهما اختلفتا مرات، فالطباع متباينة شأن النساء، ولكنهما لم تتخاصما ولو مرة واحدة. لعل أهم ما تعلمته حنان منها، كما ذكرت لسهام في نهاية السنة الأولى، أنها عرفت معنى أن تتنازل من أجل الآخرين، ما دام الآخرون محافظين على احترامهم لها. فقد كانت سهام تسبقها بالتنازل، إذا تمسّكت حنان بشيء، وتقول لحنان بلهجتها السورية التي عشقتها الثانية:

– -"تموني" يا حنونة، والله في سماه، لو طلبتِ عيوني ما تغلى عليك.

أجمل أيامهما قضياها معا، تطبخان بالتبادل، سهام تذوّقها المطبخ السوري، وتصرّ في كل مرة أن تبدأ حنان بأكل الأوراق الخضراء (الجرجير والفجل)، مع أطباق الكبة، والكبدة والبرغل. وحنان تطعمها المحشي بأنواعه، والملوخية وأحلى فول مدمس تعده في كل مرة بنكهة مختلفة؛ وذلك في إفطار يومي العطلة الأسبوعية: الجمعة والسبت. أما سهام فهي عاشقة للكبدة الإسكندرانية، بالفلفل الحار، والبهارات، تأكل وتوحوح، ويبرز محجرا عينيها، وتصرخ في سهام:

– أنت مجرمة في الطبخ يا حنان، شطارة وشطة، اتصلي على المطافي.

كان الهاجس الذي عكّر نفسية حنان هو: من ستأتي مكان سهام بعد رحيلها؟ فما أكثر المنازعات بين المعلمات في السكن الحكومي، وبعضها

يصل إلى العراك وشد الشعر، ومنها ما يصل إلى إدارة السكن الحكومي في المنطقة التعليمية، فتتدخل الموظفات لفض الصراعات، التي تنتهي عادة بنقل كل منهما، إلى سكن آخر.

❊ ❊ ❊

(٨)

شهور مرت على زواجنا..، وتكشّفتْ شخصية محسن أمامي، وصدقَ أبي في بعض ما قاله، بأن العشرة كفيلة بكشف الرجل، وأنا أقول هي الوسيلة لسبر أغواره، بل سبيل لكشف الناس كلهم، ولتسقط الرومانسية التي يبرع العشاق في تمثيلها.

وهكذا علمتني الحياة، وكان أول درس تلقيتُه في العشرة هو زوجي. وعندما يعود هاجس السؤال عن مدى توفيقي في اختياري له، أردد أن لا جدوى من الإجابة عنه.

فها أنا الآن أعيش معه، لأحصد ثمار أول تجربة خارج المنزل، وأنني على كل ما أتصف به من قوة شخصية، وجرأة، وطلاقة لسان، وإقناع، إلا أنني لم أسيّر حياتي وفق ما أردتُ. واكتشفتُ أنني بطلة فيما أقدر عليه فقط، مع زميلاتي، ومع الناس، أما مع أبي والعائلة، فأنا أفضّل أن أعيش بسلام، دون تحدٍ أو عناد.

محسن كائن روتيني، هدوؤه إلى حد البرود، محدود الأفق، مقيد إلى حد الانغلاق في علاقاته الاجتماعية، التي لا تتجاوز أصدقاءه القدامى، وكان يتحتم عليّ أن أتعرف على زوجاتهم في الشهر الأول (شهر العسل)، بتوالي زياراتهم لنا، حاملين الشكولاتة والزهور، وبعض التحف والهدايا.

أصدقاؤه يشبهونه، كلهم موظفون، لا يخرج كلامهم عن العلاوات والترقيات والمحسوبيات، وكذلك زوجاتهم كلهن موظفات، كلامهن

منحصر في كيفية التدبير المنزلي لمواكبة غلاء الأسعار، وفي هموم الأولاد والدروس الخصوصية، ومتاعب الدروس الخصوصية.

سألت نفسي عشرات المرات، عن كنه الحياة الزوجية التي أردتها، واكتشفت أنني لم أحدد ما كنت أريد، بل تركتُ نفسي وفق ما يريدون، وكما درسنا في علم المنطق: المقدمات المتشابهة تعطي نتائج متشابهة، وأسرتي الجديدة نسخة من الأسرة التي عشتُ فيها، ولكنها استنساخ باهت إذا وُصِف في أحسن الأحوال.

فأنا ومحسن موظفان، مثل أبي وأمي، ولكن شتان ما بين أسرتينا، في اللعب والمرح وصنع الذكريات الممتعة، والأماسي الضاحكة، والحب الذي يغلف بيننا.

محسن حياته: وظيفة في الصباح، غداء، ثم نوم، ثم تلفاز، ثم قراءة بعض الصحف والمجلات. خروجنا مقتصر على زيارة من يعرفهم من أصدقائه وأقاربه، وهم يردون زيارتنا، بنفس الحكايات، بل ونفس كلمات المجاملة.

وصرتُ أنا مثله تماما: معلمة في الصباح، ثم انشغال بشؤون البيت في المساء، وترقّب لولي العهد، وقد نما في بطني، التي تورّمت ثم تكورت شهرا بعد شهر.

حياتنا المادية مؤلفة من راتبينا، وعلينا تدبير شؤوننا إلى نهاية الشهر. ولذا، استجبت لطلب فاطمة، عندما عرضتْ علي أن أعطي دروسا لطالبات في منزلي، وأقنعتني بأنها تسلية لي من جهة، وتحسين لدخلي من

جهة أخرى، ومحسن لن يعترض، فقد حدثتْه أخته هي في ذلك، واقتنع ووافق. وقال فاطمة أيضا:

-أنت ستعطين دروسك في غرفة السفرة، وهو لديه بقية غرف الشقة، يمرح كما يشاء.

كان من ضمن اكتشافاتي المؤثرة، أن زوجي الغالي لا يرد كلمة ولا اقتراحا لشقيقتيه، وأن كل أسرارنا الخاصة عندهما أولا بأول، فهو يحكي لأمه القاطنة في الدور الأول، وهي تتكفل بتوصيل حكيه بتمامه إلى ابنتيها.

عدتُ للبحث عن صديقتي المقربة فاطمة، فوجدتها تقدّم أخاها عليّ، وتقيم الدنيا ضدي، إذا اكتشفتْ أنه غاضب مني لسبب ما، فمحسن بالنسبة إليها خط أحمر، يمكن أن تخسرني أنا أو غيري من أجله.

هم أسرة مترابطة نعم، ولكن محسن آخر من يتكلم فيها، بل هو ينفذ لا أكثر، هن: أمه وشقيقتاه يقررن، وهو يسمع ويطيع، وطبعا زواجي منه، كان تدبيرا من فاطمة، وقد وجدت فيّ عروسا تناسب أخاها: موظفة لها راتب، جميلة، وصديقة لها.

***

اشتد المرض بأمي، فتفرّغتْ لها مُنى، بعدما أنهت دراستها في كلية الآداب، بتخصص لا وظيفة حكومية له وهو قسم الاجتماع. وبدأ الخطّاب يتقدمون إليها، فهي تناظرني جمالا، وإن كانت تختلف كثيرا عن شخصيتي، فمُنى قليلة الكلام، وحازمة، ورثت شخصية أبي تقريبا، والأهم

أنها عنيدة، ووالداي يعرفان عنها هذا، فيتجنبان قدر المستطاع عدم التصعيد معها. وقد استفادت هي من هذه المزايا، وتفوقت عليّ، حين أصرّت على أن تكون الكلمة الأخيرة لها في الارتباط، رغم إلحاح أمي عليها، وكذلك أبي، فأي عريس يتقدم لها، لابد أن يستوفي اشتراطات أبي وسؤاله عنه وعن عائلته مقدما، ثم يتوجب عليه أن يجلس معها أولا، في غرفة الصالون، ويفتحان الباب، ويجلس أخي حسين في الصالة، يراقبهما.

ربع ساعة، ثم تخرج منى من الصالون، لتقول كلمة واحدة، ألا وهي "لا".

ثم تفصّل لأبي الأسباب بأسلوب عقلاني، وحجة وبرهان، وتعلن بكل صراحة:

- لم أرتح له، أو ضعيف الشخصية، أو سطحي، أو ابن أمه، أو تافه التفكير...

وعبثا يحاول أبي مناقشتها، وتناديها أمي لتسمع لها، إلا أن مُنى تدخل غرفتها، وتغلق الباب عليها طيلة اليوم، اللّهُمَّ إلا إذا خرجت لإعطاء الدواء لأمي.

لم أتوقع منها ذلك، فدوما كنت القائدة لإخوتي، والقدوة لهم. والغريب هو موقفها عندما تقدم إليها "عماد"، فهو وفق مواصفات العائلة أقل ممن سبقه، وقد قبله أبي مضطرا، بعدما ضاق ذرعا من الابنة الرافضة، وكانت حجة أبي أن أحواله المادية ضعيفة، فهو موظف في الصباح، ولديه محل ملابس جاهزة في المساء، وقد أمضى سنوات من حياته يعمل على تاكسي،

لمساعدة أهله. وإن أقرّ أبي أنه من عائلة كريمة، ولا يعيبه أبدا إذا كانت ظروفهم المادية، سببا في خروج عماد للعمل منذ المرحلة الثانوية، حتى أنهى دراسته ثم تسلم وظيفته الحكومية.

إنه يوم الجمعة، موعد زيارة العريس للتعرف عليه من قبل العروسة منى.

أبي في قيلولته، غير مبال ولا متفائل، وأنا مع أمي أسامرها، فاستقبله أخي، ثم قابلته أختي، دون مكياج، بعدما سمعت من أبي تفصيلات حياته، وسماته.

طال لقاؤها معه، حتى ملّ أخي في جلسته بالصالة، ولكن لا يليق أن ينزل ويترك العريس مع الحريم. أخيرا، سمع حسين صوت العريس يستأذن في الخروج، فقام بتوصيله إلى باب الشقة، ثم خرجت منى من الصالون، لتفاجئ البيت بأنها موافقة، وهي تبتسم ببراءة، وتتجه لغرفتها لتغير ثيابها، وكأن الأمر عادي.

صرختُ وأنا أحتضنها، غير مصدقة، وتبعني أخي الذي قبّلها، فقد تعب من الدور المناط به: الرقابة والمتابعة والاستقبال والتوديع. واستيقظ أبي على صخبنا، وجلس في الأنتريه، وتساندت أمي وجلست معنا، فقالت أختي بطريقتها المقنعة:

- -أعجبتني شخصيته، مكافح، مؤدب، متدين، يخطط للمستقبل، ويريدني زوجة ملكة في المنزل، وصارحني بأنه رافض لأن أعمل، كي أتفرغ للبيت والأولاد.

قلبت أختي الطاولة على كل تصوراتنا عن العريس وفق مقاييس أبي، أما أبي فقد ردّ عليها، وكأنه يشاغبها أو يحذرها:

- -هو أقل وسامة ممن سبقوه، ووظيفته صغيرة، ومادياته محدودة.

أجابته منى بتؤدة:

- لا يهم يا بابا، وقد أخبرني أيضا، أنه ينوي ترك الوظيفة مستقبلا، فقد قبلها مضطرا، كدخل ثابت، وسيتفرغ للعمل الحر، ليكون سيّد نفسه.

وقف أبي، ودنا منها أبي وقبّلها، وهو يقول: - على بركة الله يا بنتي.

***

انشغلت الأسرة بعرس منى، اشترينا لها غرفة الصالون، وأدوات المطبخ، واشترى هو السفرة وغرفة النوم، والشبكة المقدمة بسيطة، لا تزيد عن خمسين جراما من الذهب، وكُتِبَ العقد في المسجد المجاور لبيتنا، بحضور أفراد العائلتين والأقارب، ثم جلست أختي بفستانها الأبيض في السيارة وسط الشارع، وأحاطت بالسيارة فرقة زفاف صغيرة، فيما وقف العريس ببذلته الجديدة جانب السيارة، واجتمع أهل الشارع والأقارب مغتبطين. لم يستغرق الزفاف أكثر من ساعة، وتحرّكت السيارة بهما، إلى عش الزوجية، وصعدنا نحن إلى شقة العائلة، لنكمل السهرة ضاحكين.

تعجبتُ من موقف أبي وعمي وأخوالي، هؤلاء الذين بالغوا في المظاهر عند زفافي؛ سكتوا وباركوا لأختي زفافها البسيط.

زرتُ أنا وأبي أختي في الصباحية؛ منى طائرة من الفرحة، وكـأن الدنيا زاهية أمامها. سلّمنا على العريس، الذي ارتدى بيجامة حريرية، ووجهه نابض بسعادة ورقة، مع جدية واضحة في محيّاه، تلفت نظر كل من يحادثه.

***

صار لزاما عليّ المرور على أمي كل يوم، فأختي لا تزال في شهر العسل، وأخي منشغل بتعيينه في وظيفة جيدة بشركة قطاع عام، بوساطة كبرى من وكيل وزارة التربية والتعليم، إكراما لمركز أبي في المديرية التعليمية، كونه من أنشط المدراء، وهكذا ذكر لنا أبي، وأن هذا هو المطلب الوحيد الذي طلبه من وكيل الوزارة، طوال خدمته الطويلة. وكل ما فعله وكيل الوزارة أنه أوصى على أخي في مسابقة التعيين التي أعلنت عنها الشركة، بعد استيفاء أخي لمعايير القبول.

قال ذلك أبي وهو ينظر إلى أخي حسين الذي كان شديد الفرحة، فلطالما حمل همّ الوظيفة، وهو لا يريد الغربة ولا السفر، ويطمع فقط في استقرار وأسرة.

- اهتم يا حسين بعملك، ودبر مستقبلك.

كنت أنهي حصصي مبكرا، ثم أغادر المدرسة إلى منزلنا، فأظل مع أمي؛ أنهي شؤون البيت: الطعام والتنظيف، وأمكث حتى يعود أبي من عمله، ثم أغادر إلى بيتي. لم يمانع محسن في هذا، وتلك من حسناته، فهو يعود من

عمله، يسخّن الطعام، ويتغدى وينام، أو يتغدى عند والدته، ثم يصعد لينام.

***

إنه قلب الأم ببصيرته، وهو ما دفع أمي إلى سؤالي عن أحوالي مع محسن، كانت قد تحاملت على نفسها، وتسنّدت عليّ لتجلس في الصالة. همستُ لها بكل ما في نفسي، والذي كتمته عنها خلال الفترة الماضية. تطلعت لي ماما، وقالت:

- لن تفصّلي زوجا على مزاجك، المرأة الذكية تتكيف مع زوجها.
- هو روتيني وصموت وهادئ.

ابتسمت أمي، وهمست:

- كثير من الرجال بهذا الشكل، ولكنهم يتغيرون تدريجيا، وسيعرف قيمتك في حياته.
- وماذا يجب أن أفعل؟
- كوني كما أنت، حنان المرحة النشيطة الأليفة، وهو حتما سيتغير دمتِ تجعلين حياته سعيدة، بادري أنت، إن لم يبادر هو.

فكرتُ في نصيحة أمي، بالفعل انتظرته ليغيّر حياتي، فاكتشفت أنه ينتظرني لأغيّر منه. فهذا طبعه، أن يترك الآخرين يفكرون بدلا منه، والآخرون في حياته هم نساء: شقيقتاه وأمه. لذا، قررت أن أعيش بطبيعتي

التي أعرفها، سأكوّن شخصيتي التي ظللت عليها طوال عمري، وسأحاول أن أكون واحدة من النساء اللائي يغيّرنه.

أحكي له كل شيء، ينتبه محسن فينصت لي، وأنا أقص عليه مواقف طريفة واجهتني، يبتسم. تعودت أن أحكي له عن عالم المدرسة والبنات والمعلمات، وأطيل، وهو يسمع ثم يعلق، فأرضى بكلماته المقتضبة، التي هي أفضل من صمته الدائم.

طلبتُ منه أن يقصّ علي ما يفعله في شغله، مثلما أحكي له، فتساءل عما يمكن أن يحكيه، وهو يضحك ضحكته الصغيرة، وكأنها مصنوعة من أجل المجاملة لا أكثر، وتظهر فيها مقدمة أسنانه. فقلت له:

- كلمني عن شغلك وماذا تفعل فيه.

فسكت مفكّرا في كلامي، ثم قال وهو يسهب مضطرا:

- ليس لدينا جديد، غدا مثل أمس، والسنة القادمة مثل الفائتة. موظفو الحسابات جديدهم أوراق، وقديمهم أوراق. لسنا مثلكم، تتغير عليكم وجوه البنات كل عام.

كانت تلك هي الحالة الأفضل التي توصلت إليها مع محسن، واستمرّت بنا الحياة، عندما أكون مشتعلة متوترة منقلبة السحنة، يسمع مني، ببرود، وبلا رد، وعندما أستفسر منه، يعود إلى ما كان يقرأ فيه أو يتابعه في التلفاز، قائلا:

- المسألة بسيطة، اهدئي أنتِ فقط.

صارحت أمي ثانية وكانت راقدة في فراشها، وتوشك على الانخراط في النوم، فهمستْ لي، بصوت لا يكاد يُسمَع:

- أنتِ طبعكِ حار، تجعلين من الحبّة قبّة، وهو طبعه هادئ.. كلاكما يكمل الآخر، وإلا أشعلتما الدنيا بصراخكما.

وكأن أمي تبصرني بمساري في الحياة الزوجية، بل وتحدد طريقي فيها، فأعرف أن "محسن" لن يبدل طباعه. " أنا لن أتغير يا حنان، لأني راض عن نفسي"، وهكذا وصف نفسه ذات مرة، بل أوضح بكلمات موجزة أعجبتني، ربما يكون قد قرأها في مقال:

- أجمل شيء في حياتي؛ أن تظل حياتي هي حياتي.

والغريب أنني إذا جادلتُه، يصمت، ولا يكرر ما قاله، فهو يستمتع كعادته بصمته، وبهذه الحياة التي يوقن فيها أن التغيير معناه لخبطة نظامها المريح.

رائعة هي الأمومة، عالم آخر، ومشاعر لذيذة، فقدوم "وليد" نقلني إلى حياة ثانية، مثلما قالت لي أمي، بأن ضحكة ابني عندما يأتيك، ستكون بالدنيا وما فيها. وأوصتني: " لا تكوني سببا في نكد طفلك".

***

صرختُ وسمع الجيران صراخي، إنها المرة الأولى في حياتي، وأيضا كانت الأخيرة، أن يجتمع الجيران والناس في الشارع على صوتي. لم أتمالك نفسي، عندما جاءني الخبر، فهرولتُ بملابس البيت نازلة على السلم، طرقت شقة حماتي لأناولها ابني وليد، فلمّا عرَفتْ بالخبر، أوقفتني، وجذبتني لداخل

الشقة، وألقت عليّ عباءة سوداء من عندها، وأخبرتني بأنها ستلحق بي، وستتصل بابنتيها. لم أصدق.. عندما اتصل بي أخي، ظهيرة يوم قائظ، في صيف يوليو، وقد ظل دقائق ينتحب في الهاتف، والكلمات متوقفة في حلقه، ليبلغني أن أمي قد أسلمت السرّ الإلهي.

على قدميّ، ركضت إلى منزلنا، لا أعلم المسافة، ولا الزمن، ولكنني كنت أرى الناس في الشارع يشيرون نحوي استعطافا، فقد كنت أهرول، وأسقط، وأبكي، إنه إحساس اليتم. ارتقيتُ سلالم العمارة وثبًا، باب شقتنا مفتوح، نساء الجيران متشحات بالسواد، سبقتني أختي، بينما وقف بعض الرجال في الطرقة أمام الشقة.

ممددةٌ على الفراش، حرّكتُ الغطاء عن رأسها؛ وجهها قمر يتلألأ. نعم البشارة يا أمي، نابض محيّاكِ بالإشراق والطمأنينة، وبابتسامتك الراضية، عيناك نصف إغماضة، تعبر عن نومتك الأبدية في سلام ورضا.

- توقف قلبها فجأة.

تحكي أختي عن ليلة الأمس، وعما حدث ساعتها. ضاق تنفسها، واشتد ألم صدرها، وامتقع وجهها، حضر الطبيب عند الفجر، ظلّ معها، أصرّ أبي على نقلها إلى المستشفى، ولكن الطبيب أخبره أن الوقت تأخّر.

***

أبي وأخي في البيت، لا مجال للحوار بينهما، شخصان مختلفان، حسين ورث طباع أمي، بقلة كلامه، وهدوئه طباعه، بعكس أبي المحب للحياة، والحكايات، والناس.

تناوبنا أنا وأختي على خدمتهما، لابد أن يظل بيتنا نابضا بالحياة، وأن لا نفترق، وإن تلاشى الدفء العائلي. أفرط أبي في خروجه المسائي، متنقلا بين زيارة أعمامي، أوالجلوس على المقاهي مع أصحابه، ثم يعود فيشاهد التلفزيون حتى يتثاءب، وقد يتمدد على الكنبة في الصالة، عازفا عن غرفة نومه، ورائحة أمي.

- سأتزوج.. ابحثوا لي عن بنت الحلال.

لم تصدر هذه المقولة من أخي، إنها من أبي، يخاطبني أنا وأختي، سكتنا.

تعجّبتْ منى من قرار أبي، وتوقعت أن يطلب الزواج أولا لأخي، لتخدمهما زوجته، وهكذا قالت لي، أما وأن يطلب الزواج لنفسه أولا، فهذا غير مقبول، ثم يكلفنا نحن البنتين بالبحث له عن ابنة الحلال، وكأننا نذبح حزننا على أمنا.

أعرف أبي جيدا، وتوقعت هذه الرغبة منه بعد وفاة أمي منذ ستة أشهر؛ فأبي في منتصف الخمسينيات، محافظ على أناقته وحيويته، ويبدو أن النية مبيتة لديه من زمان، منذ مرض أمي الذي طال، وهكذا ذكر لي حسين، وهو يحضنا أنا وأختي على اختيار عروس لأبي، تناسب سنه، فنحن على دراية بمجتمع النساء، ومعارفنا متعددة، وليتها تكون طيبة مثل أمنا، كي لا تتفكك أسرتنا، وتبتلعنا الدنيا.

صبر أبي شهورا أخرى، حتى هدأت نفوسنا، واستقامت حياتنا، وقد أنجبت أختي توأمًا، فندرت زياراتها لأبي، وأنا في انشغالاتي مع طفلي

وعملي، فاقتصرت زياراتي على يومين، أطبخ لهما، وأضع حِلل الطعام في الثلاجة، ويقوم أخي بتسخين الغداء، وغسل المواعين. إحساسي أن الحياة لن تستمر هكذا. عاد إلحاح أبي، فقلنا:

- معقول يا بابا، نحن نختار لك، بعد أمّنا الله يرحمها.
- أريد زوجة لي، وأختا لكم.

بعدها بأسابيع تفاجأنا باختيار العروس.

❊ ❊ ❊

(٩)

محظوظةٌ حنان، وموعودة بالشخصيات الفريدة، هذه "عواطف" رفيقتها الجديدة في الشقة، قدمت إليها بعد أسبوعين من رحيل سهام، وإعلام الوزارة بأن هناك شاغرا في السكن معها.

تعجّبت المعلمات من العربة نصف النقل التي وقفت أمام باب العمارة، وخمس حقائب كبيرة مع كراتين، يتم إنزالها، إلى مدخل العمارة، وتترجل صاحبتها. الهمسات تزداد في النوافذ والشرفات، متوقعة أنها الساكنة الجديدة مع حنان.

تأملت حنان عواطف: وجهها حنطي، وملامحها مسمسمة، وضحكتها مجلجلة، ولهجتها من أعماق الريف. دلفت الرفيقة إلى الصالة، تبعها الحارس بالحقائب، ناولته بقشيشا سخيا، جعله يدعو لها.

همست حنان لنفسها: "سهام استقبلتني ورحلت، وها أنا أستقبل عواطف، ولا أعرف هل سأرحل أنا أم هي؟".

جعلت عواطف البساط أحمديا، فحكت بتلقائية عن نفسها وعن حقائبها.

حذرة كانت حنان في بداية علاقتها معها، فيمكن أن تتقرب منها، ويكونا صديقتين، أو تعاملها رسميا، فتُغنِي نفسها عن عراكات تافهة. وسرعان ما اكتشفت أنها أمام فتاة شفافة إلى درجة النقاء، دون سذاجة أو

ضعف، وربما لأول مرة ترى فتاة بهذه الطيبة، بقلب لا يعرف خبثا، ولا يتحسب لما هو قادم، وقد عاشت لأجل غيرها، وأرادت أن تعيش أيضا لنفسها.

ليست معضلة، ولكنها الحقيقة التي استشفّتها حنان، وهي تنصت إلى رفيقتها الجديدة، وقد علمتْ أنها ليست مستجدة، وإنما طلبت نقلها إلى هذا السكن، لانتقالها إلى مدرسة مجاورة له، فهي لا تملك سيارة، وغير مستعدة لتعلم القيادة. حياتها بسيطة: المدرسة، والسكن، والاتصال على أهلها.

عواطف ابنة قرية نائية، على أطراف محافظتها، لم تعرف المدينة، إلا أثناء دراستها الجامعية في مدينة بني سويف، وسط صعيد مصر. تغدو من قريتها في بكور كل يوم، ثم تعود آخر النهار، لتساعد أمها في شؤون البيت، ورعاية إخوتها الستة. حمدت لأبيها أنه أرهق نفسه ماليا، لتواصل تعليمها إلى الجامعة، فهو خفير نظامي، ويؤجر قراريط لزراعتها، ولديه جاموسة واحدة. تنهض الابنة الوحيدة "عواطف" قبل الشروق لحلبها، ثم تعكف أمها على غليه وتوزيعه في أكواب على أبنائها، مع الأرغفة الطازجة، وما يتبقى منه يُصنَع جبنا، أو زبدة، أو قشدة؛ وقد تدخره الأسرة، أو تبيعه في السوق. إنها نموذج لأسرة ريفية، أملها أن تطعم أولادها.

يتعين على عواطف ركوب ثلاث مواصلات حتى تصل إلى كليّتها، فقد رفض أبوها إقامتها في المدينة، فهو غير قادر على مصاريف سكن الطالبات.

تكاد تكون عواطف هي الوحيدة في جيلها من بنات قريتها وكذلك عائلتها؛ التي وصلت إلى الجامعة، ويناديها أهل القرية بالأبلة منذ أن كانت في الثانوية، مشيدين بأدبها وطيبتها، فلا تتقاضى أجرا في مقابل تدريسها لأولادهم.

اعترض أبوها ذات مرة، فقالت بسماحة نفس:

- هم فقراء، ولن يعلّمهم غيري.

ابتسم أبوها، وطأطأ رأسه، فابنته تحمل طيبة أمها، فلا ترد سائلا.

تعيّنت في المدرسة الإعدادية بقريتها، راتبها مبذول لأسرتها، تتابع العرسان عليها، أصمّت أذنيها، فلا والدها قادر على تجهيزها، ولا هو مستعد للتنازل عن مرتبها.

هكذا، أنصتت لها حنان، عندما تكونان على الغداء أو العشاء، متعجبةً من هذه الفتاة التي تجاوزت الثلاثين بسنوات، التي تقول بصفاء قلب:

- سني كبير على شباب القرية.

- لهذا الدرجة!

- في قريتنا، زهوة البنت للزواج من السادسة عشرة إلى أول العشرينيات، ومن تركّن، فليس أمامها إلا أن تكون ضرة.

حكت أيضا، كيف لهثت وراء إعلانات السفارات، فهي أكبر أشقائها، وأرادت مساعدة الأسرة، فأجمل لحظاتها أن ترى عيون أشقائها الصغار،

وهم يتطلعون لها ببراءة ورجاء في إجازاتها، وهي تفض حقائبها المتخمة بالهدايا. وبالفعل تبدلت أحوال الأسرة.

مع العام الثاني لها في الغربة، هدموا بيتهم ذا الطوب النيئ، وبنوه بالخرسانة المسلحة، وتعددت طوابقه، وفتحوا دكاكين أسفله، يرتزق منها إخوتها في تجارة الأعلاف والكيماوي، وأراحت أباها. تبتسم عواطف حامدة ربّها:

- مع مرور السنين، إخوتي تزوجوا، ولم يتبق إلا أنا، وأخشى أن أكون وحيدة في الشقة التي نلتها في البيت.

ربتت حنان عليها، وهمست:

- أنت ضحّيتِ من أجلهم.

ضحكت عواطف، وهي تقول:

- إخوتي عزوَتي، وحتى الآن كلهم ينادوني بالأبلة.

ثم غيّرت مجرى الحديث، وهي تلقي في فمها كومة من الترمس المملح:

- أنا الآن أعيش حياتي بالطول والعرض.

- وأنا أشهد لك يا عواطف.

في أوبة حنان المسائية، بعد إنهائها أشغالها في مجموعات التقوية والدروس، ترى رفيقتها ممددة على كنبة الأنتريه، عيناها تتنقل بآلية بين هاتفها النقال، والتلفاز، وما إن تشاهد حنان، حتى تقفز:

- هيا لمعركة العشاء يا حنونة.

وسرعان ما تُمدَدُ أطباقٌ متنوعة، على مفرش بلاستيكي، فترمي حنان حقيبة يدها، متربعة جانب رفيقتها، التي هي فنانة في أي صنف تعدّه، حتى لو كان جبنة بيضاء، فتحيطها بالطماطم المقطعة، وشرائح الخيار، وتلوّنها بقطرات من زيت الزيتون.

أما أقل وجبة في عُرفها؛ تعدّها في ساعة، وتلتهمها في ساعة، تأكل وعينها متصلبة على المسلسل، والذي قد تعيد مشاهدة حلقاته مرات في اليوم الواحد، متنقلةً وراءه في الفضائيات. ولا بأس عندها أن تحكي لحنان المفروسة، عن أحداث المسلسل تفصيلا، بل وتكرر جمل الحوار، ثم تصرّ أن تكمل الحلقات، مفتخرة:

- لذة الحياة يا حنان ثلاثة: الطعام، والنوم، والمسلسلات.

عهدها أن تمتع نفسها بكل دقيقة، فلم تعش – في طفولتها ولا صباها- الحياة الرخية، فلا بأس من المتعة حتى الثمالة؛ نوما، وكسلا، وطعاما، ودراما؛ حتى يأتي العريس الذي حتما سيكون سعيدا بهذه الزوجة الفنّانة.

تذكر هذا لحنان، وأسنانها لا تكفّ عن المضغ، وفي هذه المرة كانت قد أنهت كيسا كبيرا من اللبّ الأسمر، وتكوّم القشر بجانبها على محارم ورقية.

- أواثقةٌ من قدوم ابن الحلال يا عواطف؟!
- سيأتي حتما، برضاه أو غصبا عنه.

- كيف يكون غصبا عنه يا عطوفة؟
- هذا قضاؤه وقدره، وما عليّ إلا الانتظار.
- وهل ساق القدر لك عريسا؟
- العرسان لا ينقطعون، في الكويت، ومصر، ولكن صاحب النصيب لم يظهر.

تتأمل حنان عواطف بجسدها الممتلئ، إنها سمنة الجسد البض التي يعشقها المصريون، والمفارقة أنها قد تنقلب على نفسها، وتعلنها ثورة، كلما وجدت ملابسها تضيق عليها، فتتخذ قرارا بتخسيس نفسها برجيم قاس، لتعود جسما رشيقا.

وإن كان هذا في النهاية مجرد حلم، أو ادعاء، حيث تلتزم بالرجيم أياما، ثم تعود منتقمة من الطعام، الذي حُرِمت به. فتضحك حنان، عندما تقود عواطف ثورة مضادة، فتشتري فخذ خروف من الجزار القريب، وتطبخه بعناية في الفرن، وتشبعه بالتوابل، ثم يتوسط المائدة، وتنادي حنان لمشاركتها، وتؤكد أنها في انتظارها حتى تخرج من غرفتها، فتستبطئها حنان، حتى تنهي أشياء بيدها، فترد عليها عواطف بقصيدة غزل مطولة، عن الفخذ المتوقّد بسخونته، والشطة الحارة عليه.

يا لبؤس حنان! فقد تأخرت دقائق، كانت كافية لفقدان نصف الفخذ، وعليها أن ترضى بما تبقى من لحم أحمر، أما عواطف فإن غرامها باللحم الأبيض لا يضارعه غرام، فما يتبقى منه، يستقر مزدانا بالفلفل الأسود في سندويشات بيد الرفيقة الفاتنة.

وها هي حنان تقول في قرارة نفسها: أنا أعيش بين نَهمتينِ للحياة؛ في السكن عواطف، وفي المدرسة روان، يجمعهما العيش بمزاج، لا يلقين للّهُمَّ بالا ولا اهتماما. أما أنا، فلا زلت غارقة في حساباتي.. عن الدنيا والناس وتقلبات الزمن.

***

عرفت روان كل شيء عن عواطف، ضمن الحكي اليومي لحنان، فقررت أن تتأكد بنفسها، وهو ما تم، ففاجأ روان حنان بالاتصال بها في ظهيرة يوم جمعة، أخبرتها بنيتها بالزيارة عصرا. رحّبت حنان، ثم قالت بصراحة:

- إذن، سألغي خروجي المعتاد إلى السوق.
- لا تلغي شيئا، أزوركم، ثم نخرج معا للسوق، وفرصة نتكلم ونتسوق.

سارعت عواطف إلى المطبخ، رافضة معاونة حنان، فما دامت صديقتها روان قد جاءت لزيارتها، فهي ستطعمها على مزاجها الخاص، وعندما كانت روان تضرب الجرس، كانت عواطف، تنشّف يديها، وتدخل لتبدّل ثيابها.

- صممت أن أتعرف عليك يا عواطف، بعدما كلمتني عنك حنان.

تلك أولى كلمات روان بعد عناقها لعواطف، في تعارفهما الأوّلي، وسرعان ما اندمجتا في حوار مطول، على طاولة الغداء: المزدانة بصينية مكرونة بالبشاميل، وشرائح البوفتيك، وقطع فراخ محمرة، وأخرى مشوية.. كان طعاما يكفي عشرة، ولكن عواطف وروان، ظلتا تأكلان، وتتكلمان،

لمدة ساعة، ثم جاهدتا في الوقوف، فقد امتلأ البطن، وتكاسلت الأرجل، فهتفت عواطف:

- هذه درجة أولى يا روان، وفي المرات القادمة، ستنهضين بسهولة، لأنك انضممت إلى جماعتي.
- وما هي جماعتك؟
- جماعة الرضا عن الذات.
- كيف؟!
- بأن تفعلي ما تحبين، وتعيشي كما تريدين.

***

ولأن عواطف "بيتوتية"، والسوق بالنسبة لها اضطرار في نهاية الشهر فقط، فقد خرجت حنان وروان، وقررتا أن يجلسا في كافيه، بعد تطوافهما في السوق.

تحاورتا عن عواطف وكرمها، واستمتعت روان بحكاياتها، عن الناس في قريتها، وعن المعلمات في مدرستها، وعن إخوتها، وحكت لها روان عن ابنتها وعن المدرسة، وعن حنان أيضا، هذه الحبوبة، التي عرّفتهما على بعض.

- -بالفعل عواطف إنسانة معجونة بالطيبة.

هكذا وصفتها روان، وهي تقود سيارتها وقد خيّمت الظلمة الأولى على الشوارع، وخيّم الصمت عليهما، حتى وجدت حنان نفسها تتساءل:

- لماذا تطلّقتِ يا روان؟ لم تحكي لي عن هذا من قبل.

أحابت روان ببساطة، وكأن الأمر غير مهم بالنسبة إليها:

- لأنك لم تسأليني.

احمرّ وجه حنان وهي ترد:

- خجلتُ من سؤالك، هذا موضوع حساس.

تطلعت لها روان، وهي تقول:

- ولماذا سؤالك الآن؟
- أبدا، خاطر خطر لي.
- تريدين الحقيقة.. لقد ندمت عليه إلى الآن.

بوغتت حنان بهذه الصراحة، وقد ظنت أن روان ضحية زوج مستهتر، أو أناني، أو طامع في مالها، مثل كل القصص التي تسمعها عن الطلاق. المرأة دائما مظلومة، مهضوم حقها، بل إن حنان توقعت أن تذكر روان أسباب طلاقها، ولكن روان بدأت بالنهاية، فاستلزم سؤال من حنان عن البداية. وهو ما استفاضت فيه روان، وبدأته بجملة مختصرة:

- دخل الشيطان بيننا.

ثم أوضحت مسهبة:

- تزوجنا عن حب، بعد تعارف في الكلية، كان هو في السنة الثالثة وأنا في السنة الأولى، ولكِ أن تتخيلي عشقنا للموسيقى الذي

جمعنا. قصة حب مثالية، تحاكوا عنها في الكلية، بل إننا كنا مضرب المثل، للدفعات التالية علينا، عندما يرون حبا جادا، فيقولون: "روان وأحمد".

- زواجكما إذن عن حب؟
- وكان رجلا شهما، تقدّم لي عندما تخرّج، وتزوجنا في شقة صغيرة ببيتهم. واشتغلنا بداية معلمَيِن للموسيقى في مدرسة خاصة، قبل تعييننا في المدارس الحكومية. ورفض أحمد أن يعمل في الفرق الليلية، وراء الراقصات، وهو أستاذ في العزف على الأورج، وأيضا الدرامز.

تعجبت حنان، فروان تتكلم عنه باحترام وتقدير، بل إن ذكريات حبهما لا تزال في قلبها. واصلت روان حكيها عن حفل خطوبتهما، وقد عزف أحمد فيها بنفسه أجمل الأغاني التي تحبها روان، وقامت هي وعزفت أيضا الأغاني التي يحبها، أما الجمهور فهم زملاؤهما في الكلية، الذين كانوا شاهدينَ على أصدق قصة عشق.

واصلت روان:

- -قصتنا تشبه أفلام محمد فوزي، وعبد الحليم، أفلام الغرام والهيام. كنا مستمتعين بها إلى درجة السْكر. وتزوجنا وأنجبت ابنتي، ثم تعاقدنا مع سفارة الكويت، وضحكت الدنيا لنا، فلا زلنا في منتصف العشرينيات: حب وزواج، ثم سفر وثراء، ونمتلك أحلاما بحجم الخيال.

- وبمَ كنت تحلمان؟ تساءلت حنان
- حلم أن يكون مطربا، وحلمتُ أن أكون ملحّنة أو عازفة، لنقدم فنا راقيا. كنا نفكر كيف يمكن أن نحيي الموسيقى العربية القديمة، موسيقى منيرة المهدية وعبده الحامولي، ونقدمها بشكل عصري جديد، نفس الكلمات والألحان، مع توزيع وغناء جديدين. وكان شعارنا: موسيقانا الشرقية تغزو العالم.
- وما الذي أفشلكما.
- كنا في حاجة إلى المال لتمويل الشريط الأول.. وتوافر معنا بالفعل في السنة الأولى في سفرنا.
- وماذا حدث؟
- الخلافات، ثم الطلاق..

تنهدت روان، وهي تخبر حنان بأن أحمد لا يزال في الكويت يعمل، وقد تزوج، وأنجب ولدين، وصارت له حياته الخاصة، وساعتها عرفت أنه أخرجني من حياته. أما أسباب الطلاق، فلم تخرج عما هو شائع في صراعات الأزواج في الغربة، روان بخلت بالمال، وخضعت لكلام أهلها، عندما أوصوها باستقلالها المادي عنه. وهو يقول لها إننا نبني حياتنا، نحن مختلفان عن كل الناس، لأننا فنانان.

ثم دمعت عينا روان وهي تتذكر كيف أن كليهما تغير، هي حسبتها بالمال، وهو احتقرني عندما اكتشفَ أنني نهمة للمال.

تسألها حنان وهي غير مصدقة:

- -ولكنك تلبسين أفخم الملابس، وعاشقة للحياة!
- -تغيرت القلوب، وكنا لا نزال شبابا، نفتقد الخبرة.
- -ولماذا لم تصارحيه بهذا قبل زواجه، لترجعا لبعضكما من أجل ابنتكما؟
- لقد كرهني.. وتبخّر الحب من قلبه.

***

لم تنم حنان ليلتها، فدموع روان كشفت الشخصية المرحة التي تعاشرها، استحضرت الهيئتين: ضحكها ونكاتها الساخرة، ووجهها المتحسر.

قصة حب مثالية، توِّجت بنفور وندم، يتخاتل في عينيها "محسن" زوجها، وكيف جلدتْ لذاتها، عندما تركت الآخرين يختارون لها. حلمت بزواج عنوانه: المرح، والحياة، والانطلاق، وها هي الآن، تكتشف أن الحياة لا معايير لها، فمعاييرنا في أنفسنا.

❊ ❊ ❊

(١٠)

سنتان مرتا على رحيل أمي، أغدو إلى شقتنا القديمة، أرتقي سلالم العمارة. لا أعلم هل أنا تغيرتُ، أم سكانها الذين تغيروا، سكون بعد صخب، وانفصال بعد تواصل، أبواب الشقق مغلقة، وهي التي كانت دوما موارية، أو يفتحون شرّاعة باب الشقة، فيرى ساكنو الشقة من يصعدون على السلم، والصاعدون لا يرونهم، فلا يجرؤ غريب أن يدخل العمارة، إلا ويجد من ينادي عليه مستفسرا إلى أين هو ذاهب، وكان الأطفال يلعبون في الطرقات بين الشقق، وتصخب أصواتهم، ولا يشتكي ساكن من إزعاجهم.

أقف أمام باب شقتنا، بعد طلائه صار بنفسجيا، عليه زخارف حمراء. هذا من مطالب العروس الجديدة لأبي، فقد أصرّت على شراء أثاث عصري، وعمل ديكورات جديدة. لم يمانع أبي، وكانت العقبة التي أمامه شقيقي حسين، فلن يرتاح العروسان، ومعهما شاب في مطلع العشرينيات. ولذا، كان على أبي، أن يبيع جزءا من نصيبه في الأرض الزراعية، التي يملكها في البلد، وينظم أمور حياته. اشترى شقة صغيرة لأخي، نقل إليها أثاثنا القديم، وشرع في دهان شقتنا، وتأثيثها.

لأننا لم نختر له عروسا، وهي حجة أبي، فقد اختار بنفسه. أراد تغييرا شاملا في حياته، نأى عن الأربعينية والخمسينية، غير معترف بما نسميه التقارب في السن، والانسجام في العقلية والنفسية، كما رفض المطلقات،

معلنا أنه لا يقبل أن يكون الرجل الثاني في حياة أية زوجة، فبحث في دائرة البنات، ممن تخطين الثلاثين. ومثل هذه لن ترتبط برجل يكبرها بعشرين عاما إلا بشروط، وكان أولها مهرا عالي القيمة، وشبكة ثقيلة في جراماتها، وأن لا يساهم أهلها في تجهيزها، بل إن قائمة الجهاز كلها تُكتَب باسم العروس. عشرات الألوف في زواج أبي، وكان على شقيقي الاعتماد على نفسه في الزواج، وساعدته أنا ببعض مدخراتي.

العروس الجديدة " رانيا"، موظفة في التربية والتعليم، ضمن الإدارات التي يرأسها أبي. زواجهما حديث المديرية كلها، عن المدير الذي تزوج موظفة شابة عنده، وارتدى القمصان المشجرة، وبناطيل الجينز، ولمع شعره بالصبغة والكريمات.

فتحتْ الباب لي رانيا، ترتدي جلبابا بيتيا حريريا، قبلات متبادلة معها. جاءني صوت أبي مرحبا، وهو جالس في غرفة المعيشة، محل غرفتي أنا ومنى قديما، أبي يشاهد التلفزيون. الغرفة بها أنتريه حديث، دون مساند جانبية، وقد تمدد أبي على كنبة الأنتريه، مستمتعا بإحدى قنوات الأغاني الشبابية. يبدو أنهما في قعدة مزاجية، فهناك صينية عليها مكسرات وشوكولاتة، وعلب المياه الغازية.

ضيّفتني رانيا ببعض مما في الصينية، وأنا أتحدث مع أبي، متعجبةً من عمرو دياب الذي بات يسمعه. ضحك أبي، وأكّد أن رانيا تتحكم في قنوات التلفاز، وهو يتركها على راحتها. ثم أقسم أن ذائقته كما هي، فهو كلثوميّ إلى النخاع، ويعشق الأطرش ومحمد فوزي وكارم محمود، ومحرم فؤاد. ولكن لا بأس أن يتذوق عمرو دياب، وإيهاب توفيق.

نصف الساعة، استأذنت أبي، وشكرت رانيا التي استبقتني للعشاء.

أنزل سلالم العمارة، مستشعرة أن كف الخمسة لم يعد أربعة بعد وفاة أمنا، وإنما تلاشى الكف، وتفرقنا، وتبقت الذكرى.

***

كل شهر في الإسكندرية له مذاق خاص عندي، فأمطار يناير الباردة، تختلف عن طقس مارس الربيعي، وإبريل يعني مغازلة الصيف على استحياء لمدينتي، التي تقهرها أمواج بحرها العاتية. أما سبتمبر فيعني هجير الصيف عندما ينازع قدوم الخريف، فالشمس تارة ساخنة على رؤوسنا، وتارة تنزوي، فيتلطف الجو. ولأن البحر صاحب السطوة الأولى، فإن سخونة الشمس تستسلم لحركة أمواجه، فتتلاعب الرياح التي تحركها الأمواج بأشعة الشمس، لتبدد سخونتها. أصطحب وليد حبيبي، ذا الأعوام الأربعة، نتمشى على الكورنيش، قبيل العصر، نظل إلى أن نسمع الآذان، من مآذن الإسكندرية العتيقة، التي تعانق سحابا يتهادى في سماء صافية، بلا مطر، ولا غيوم، ولا رعد.

في هذا الشهر، يكون رجوعنا من إجازة الصيف، ولا نذهب للمدرسة إلا لأعمال إدارية هامشية، أو لحكايات المعلمات. الكورنيش هادئ، بلا مصطافين، أشعر أنه عاد إليّ من جديد. أمواج البحر بين مد وجزر، ولكنه لا يصخب، مثلما نراه في الشتاء، حينما تضرب الشاطئ، فيتطاير رذاذها علينا. يدنو وليد من الأمواج، فتداعبه، وتغرق بنطاله، يزداد صخبا، يصرخ فرحا، ولكن لا يسمع صوته، بين زمجرة الأمواج. ها أنا ووليد

والبحر، بعد ملاعبتنا للأمواج، نسير حافييَنِ على الشاطئ، نشتري الآيس كريم، ثم نجلس على جدار السور الفاصل، يحكي لي عن حضانته، أسمع لعالمه الصغير، عن شغب الأولاد والبنات، قلوبهم إذا غضبت تنسى، وإذا فرحت تنسى أيضا، يفكرون فقط في اللحظة التالية، كيف سيمرحون فيها، ويستمتعون.

ليتنا نحن الكبار نستمر بقلوب الطفولة، إذا لارتحنا في دنيانا، وأرحنا بعضنا. يحكي وليد، فأسترجع ما علق بذاكرتي عندما كنت في سنه الصغير، أتذكر ألعاب البنات بالعرائس؛ ألعابا هادئة لا تعرف عنفا، عندما كنا نجلس على سلالم العمارة، أو فوق السطح، البنات مع بعضهن، والصبيان مع بعضهم. إخوة وأخوات، بل إن شقق العمارة مفتوحة للصغار، يدخلون، يلعبون، ويأكلون متى شاءوا.

تروي أمي أنها كانت تتركنا أنا وإخوتي ونحن صغار في صحبة الجيران، وتذهب لعملها، وتعود لتجد هناك من أطعمتْنا، وأخرى أخذتنا في شقتها لنلعب مع أولادها.

***

كان يوما فارقا وصاخبا في حياتي، التي سارت على وتيرة واحدة منذ سنوات، تأثرتُ فيها بمذهب محسن، فأجمل ما في الحياة ألا تتغير بنا الحياة، يقصد استقرار الحال، لتمضي بنا الحياة بلا منعطفات أو مطبات، فتهنأ نفوسنا، وتكون راحة البال. تلك وجهة نظره، التي لم يشرحها مرة واحدة،

فهو قليل الكلام إن لم يكن ضنينا به، وإنما سمعتها منه متقطعة، وفي كل مرة أربط ما يقوله لحظتها، مع ما قاله قبلها، فأعي مراده.

كان يوم الاثنين من سبتمبر، اكتشفت حملي الثاني، كم كان مفاجأة لي، وأنا أعرف النتيجة من معمل التحاليل الطبية. البداية مع فاطمة، شقيقة زوجي الموقرة، التي مرات تعاملني صديقة، ومرات حماةً، واليوم ارتدت معطف الأطباء، وتفرّست في وجهي، وقالت بالعامية إنه " مِنَقْوَر". طبعا لم أفهم، وهي لم تنتظر سؤالي، بل بادرت بالشرح:

- وجهك أصفر، كأنه لمونة. يبدو أن محسن سيكون بابا للمرة الثانية.

وأردفت:

- "تعيش وتجيب يا أخي الحبيب".

صدمني الخبر، ففاطمة بالفعل خبيرة وذات فراسة في شؤون النساء، لم أستطع الجلوس، أقلقتني مقولتها، فقد رتبت حياتي على وليد صغيري وحبيبي وصديقي، إلى أن يدخل المدرسة.

تسللت من باب المدرسة، وأخبرت الحارس بأنني سأغيب نصف ساعة ثم أعود، بدون استئذان، خطواتي سريعة إلى معمل التحاليل في الشارع الخلفي. أجريت تحليل البول، وتأكدت النتيجة. حائرة مشاعري، بين قلق وفرحة.

ابتسم محسن وهو أنا أخبره لحظة دخوله إلى الشقة، هز كتفيه، وبارك لي، ثم دخل لتبديل ثيابه، واستعد للغداء، وكأنه خبر عادي. بصراحة يغيظني

لأقصى حد، عندما يكون خبرا محوريا في حياتنا، فلا رد فعل منه أو حتى مناقشة معي. تحدثنا من قبل مرات، بأن الإنجاب مؤجل، فلا مكان له في حياتي كأم وزوجة، وامرأة عاملة. وضعت أطباق الغداء، وعدت لسؤاله:

- -هل أفرحك الخبر؟
- ولماذا أتضايق؟! هكذا رده
- .....
- هل ضايقكِ أنتِ يا حنان؟
- لا، ولكنني تفاجأت به، أردت تأجيله لحين دخول وليد للمدرسة.
- هذه نعمة، فلنحمد الله عليها.

أنهينا الغداء، وطلب محسن مهدئا للصداع، الذي يلازمه خلال الأسابيع الأخيرة، بلع قرصين وهو على الفراش، ثم أغمض عينيه، محاولا النوم.

انشغلت بالمطبخ، فيما انشغل وليد باللعب على جهاز الأتاري الموصول بالتلفزيون. جاءني صوت محسن ضعيفا، لم أسمعه جيدا، حتى ناداني بحدة، مطالبا بمزيد من الأقراص، فرأسه يكاد ينفجر، وعندما ذهبت إليه، كان متدليا على السرير، فاقدا للوعي.

الأيام التالية حملت إلينا ما غيّر حياتي، ورم في مقدمة رأس محسن، يضغط بقوة على العين، الأمر يستلزم علاجا مكلفا، وعدة عمليات. ذلك ما أتذكره، كنت حاملا في سمر، وأنا أرافق زوجي في زياراته إلى الأطباء بين القاهرة والإسكندرية، لم تكفِ مدخراتنا، ولا مدخرات شقيقتيه

وأمه.. رحلة العلاج الأولية ابتلعت ما في أيدينا، مع تطور حالته إلى الأسوأ، وظهور نوبات الصرع.

عدت ذات مرة، فوجدت صغيري وليد بجوار أبيه، المغشى عليه، على باب الحمام، والوليد يناغي أباه، ويظنه نائما، ويحاول أن يجره إلى السرير.

***

إنه شهر إبريل، وقد اجتاح مدينتي الهجير، عجز موج البحر في تدافعه السرمدي أن يوقف قيظ الشمس. كنت أسير إلى جانب الشاطئ، وحيدة، أفكر في مآلات حياتنا، الأمواج بلا روح، ذكرتني بالموت، الذي يسكن جسد الإنسان. عندما جاءتني آلام المخاض، وضعت ابنتي سمر، تلك الوليدة التي لم أشعر بحملها ولا آلامها، وأنا أركض خلف علاج زوجي.

السيناريو البديل أسود؛ أن يخلو البيت منه، مثل أمي، مرضت طويلا، ثم ودّعتنا في هدوء، هل أترمل في هذه السن المبكرة، مع يتيمين يحبوان في الحياة، وأم مكلومة بابنها الوحيد؟ سيكون البيت ظلاما. أدركتُ قيمة كلمات محسن، عندما يكثر من دعائه أن تستمر حياته كما هي، ربما يكون قد عاشها الفترة الماضية، ولكن ها هو التغيير، يصاب به محسن الذي عشق الرضا بالمقسوم.

- العلاج يستلزم سلسلة من العمليات الجراحية، ولابد من إجرائها خلال عام، وإلا تضاعفت الآثار.

وهكذا شخّص الدكتور إحسان الدويهي الأستاذ بكلية الطب حالة محسن، بعدما أدام الفحص، وتمعنت عيناه في الأشعة والتحاليل التي

تراكمت على المكتب أمامه، ثم خلع نظارته، وتطلّعَ إلينا، قائلا كلمته الفصل مع ابتسامة متفائلة.

سرنا في الشارع جميعنا، محسن وأنا وأمه، أفواهنا معقوفة، لا كلمات على الألسنة. ننظر لمستقبل يتخاتل أمامنا، بألوان بين الرمادي والأسود، وكأنه مفاضلة بين أشربة أيسرها مرٌ، وأشدها علقم، وما بينهما بطعم الصبّار.

عرضت أمه المنزل للبيع، انتظرنا مشتريا، ندرك أن ثمن البيع لن يفي بكل المطلوب، فكان عليّ البحث عن مورد آخر، وليبقَ البيتُ سندا لنا من تقلبات الحياة القادمة، فلا مفرّ من السفر، وإن كان الثمن هو أمومتي.

***

تعاقدتُ مع الكويت، بعدما جاءتني فاطمة بإعلان، تنطبق شروطه عليّ، سارعت بإرسال أوراقي.. شهر مرّ، عشت أمومتي مع سمر، وأنا أتمزق مع زوجي الذي بدا مثل أمي، ملازما الفراش، يتجرع مسكنات الألم، وأدوية تقلل تضخم الورم، تدهورت حاستا السمع والبصر لديه.

سافرت، داومتُ على إرسال المال إلى شقيقتي محسن، اللتين تعهدتا بمتابعة إجراءات العمليات الجراحية المتتالية. عندما نزلت في إجازة نهاية العام، كانت النتيجة أمامي، أزيل الورم، وفقد محسن بصره، وما عيناه إلا محجران دائران دون نور، ثم تقاعد مبكر دون أن يتجاوز الخامسة والثلاثين، بمعاش شهري، محدود القيمة، وعليه مواجهة الحياة وحيدا.

يقضي ثلثي يومه نائما بفعل الأدوية التي يأخذها، فقد كان برنامجا علاجيا مكثفا، ربما يستمر معه إلى نهاية العمر حسبما قال الدكتور

إحسان، خوفا من أية انتكاسة، فالورم كخيوط العنبكوت، قد تتمدد، وإن لم ترها.

حياة محسن: حبوب يزدردها في جوفه، ثم يستلقي على فراشه منهوكا، غدُه مثل يومه، ويومُه مثل أمسه، ولياليه مثل نهاراته، كلها في غرفته.

يفضفض في لحظات بوح، مُكّررا جملاً بعينها:

- أنا في ظلامات، ظلام العين، وظلام النفس، وظلام الزمن.

ألِف خدمة نفسه، يقوم بحاجاته البسيطة، كي لا يُتعِبُ والدته المسنّة، يعدّ إفطاره متحسسا ما في الثلاجة من أجبان وبيض وخبز، يأكل ما يتيسر، ثم يرجع إلى غرفته حاملا كوبا من الشاي. بالطبع هو الكوب الأول، وسيلحقه بأكواب أخرى، يجيد صنعها بنفسه. أضحت حركاته مثل الآلة، يجوس بها في المنزل، في أوقات ثابتة.

***

وهكذا كنتُ أراقبه في إجازاتي المتتالية، على امتداد سنوات غربتي المتتالية، البون يتسع بيننا، ذوت علاقتنا كزوجين، صرنا كائنين مختلفينِ متباعدين.

يستشعر دونية في نفسه، بعدما أقعدته تقلبات الحياة، زوجته تكفلت بعملياته الجراحية، وباتت تنفق على الأسرة، وعلى مصاريف علاجه الشهرية، عليه انتظار حوالاتي الشهرية ليشتري دواءه.

أقسمتُ له مرات أن هذا حقه عليّ، بل هو الواجب، ولن أمنَّ عليه يوما، ولكنها نفسية الرجل، الذي لا يجد فرارا من مرارة واقع يومي رتيب، إلا

بالتقليب في محطات الإذاعة، لعله يجد ملاذا أو هروبا من الساعات البطيئة التي تمر عليه. يودّع ولديه في ذهابهما للمدرسة، ويستقبلهما في عودتهما، يجلس للغداء معهما، مستمتعا بحديثهما، فإن سكت أحدهما استحثه على الكلام. يقول لهما: احكيا لي كل شيء، ماذا أكلتما، وماذا لعبتما، ومن أصدقاؤكما؟

أسمعه أنا وأمه، وهو يقول لوليد وسمر: أنتما الآن عيناي على الدنيا، أعرف أحوالها منكما، وأعرف أيضا ما يحدث للناس والجيران، فلا تكفّان عن الكلام.

***

أعرف لماذا تشتد عصبيته عندما أكون بإجازاتي؟ كلماته قليلة وهو يرحب بوصولي، قبل أن يتسلل إلى غرفته، ويلوذ بوحدته، لا يغلق الباب خلفه، فأشاهده ممسكا بالريموت كونترول الخاص بالتلفاز، ويقلب بآلية القنوات الإذاعية، غير منصت لها.

أترك "وليد وسمر" يغوصان في حقائبي بحثا عن الهدايا التي جلبتها معي، وأنا أتتبعه إلى غرفته. يشعر بأنفاسي تطوّقه، وأهمس له بكلمات الحب والشوق، ترتخي ملامحه وتلين، ويتحرك جفناه عن عينين منطفئتين، تتجهان نحوي، وهو يردد ثانية: -حمدا لله على سلامتك.

أهمس بكلماتي الحانية في أذنيه، يبتسم ثم يضحك عاليا.

***

في الليل، ونحن متجاوران، شوقه مشتعل للأنثى ممزوج بظمئه إلى حناني، يلين كلامه، تصبح عصبيته رقة، أستشعر ضعفه، تنحدر دمعاتي، يتحسس سخونتها بكفّه، يمسحها، يتساءل عن موعد سفري، ثم يتلعثم عندما يستفسر إذا كنتُ سأستقر يوما، فالغربة امتدت، والشوق يتعاظم بيننا. لا أجد إلا أن أكرر إجاباتي التي أذكرها له في كل مرة، بأننا لازلنا في حاجة إلى السفر.

***

في إجازتي الأخيرة، يخبرني بنبرته الهادئة أن الدكتور إحسان أعفاه من أدوية عديدة، لتحسن حالته كما أثبتت الفحوصات المتتابعة، وتلاشت توابع الورم.

حملت كلماته إشارات بأن نفقات علاجه في انخفاض، يمكن تحمّلها، مع مدخرات الأسرة. سكتُ فعاد يهمس مؤكدا بأن البنت كبرت تحتاج لأمها، والولد دخل سن المراهقة، ولابد أن ينعما بدفء الوالدينِ، وأنفاسهما في البيت.

تحصنت بسكوتي ثانية، فقد امتلكتني الغربة، وأضحت حسبتي مادية، تحجرت مشاعر في أعماقي، أو على الأقل انزوت، مع لهاثي في الحياة التي اختطفت أجمل سنواتي.

❊ ❊ ❊

(١١)

لم تخُلْ سنوات العمر الفارقة بينهما من تقاربهما، خالدة وحنان. ومثلما كان التداني حتما بينهما، كان البوح أيضا لازما، وهذا ديدن شخصيتين، عندما تذوب الفواصل بينهما، وتصبح الشفافية عنوانا لعلاقتهما، فلا تعرفان للبوح حدودا، وإنما يخوضان في الخصوصيات المكنونة، تلك التي تؤثر الأنثى أن تكون في ثنيّات الروح، خشية أن تعرف للعلانية سبيلا، فتتناقلها الألسنة، وما أقسى ألسنة النسوة إذا تناقلن حديثا!

في زيارات حنان المتكررة إلى منزل خالدة؛ تدرّس الابنة ساعة، ثم تحاور الأم لساعات، يمتد الحوار إلى السابق والآني والقادم، تتحرر فيها خالدة من أقنعة عديدة تغلّف وجهها، أهمها قناع المديرة بعبوسه وتجهمه، وأوامرها المعتادة للعاملات البنغاليات، عندما يأتين في الصباح الباكر، ويقمن بالتنظيف، أو بعد انتهاء الدوام عندما تكون خالدة آخر من تحرّك سيارتها، بعد مغادرة المعلمات والموظفات.

قناع قاس كما تصفه خالدة مرات، وتقرّ به، ولكن لابد منه، فالنفوس حولها يلزمها وجه جاد يراقبها، فأي تبسّط ربما يُنتِج تهاونا.

تستمع حنان للمديرة، وتسترجع سلوكها في المدرسة، والحاجز الذي تضعه دوما في علاقاتها مع كل من حولها، ربما تكون صادقة بعض الشيء، ولكنها أيضا قاسية، وهي تتمسك بحرفية اللوائح والتعليمات، وتراكم

الأوراق في ملفات بمكتبها: طلبات الاستئذان، والالتماسات، والتقارير والمكاتبات، والتي تضطر خالدة إلى القدوم في عطلات نهاية الأسبوع لقراءتها والرد عليها، أو للبقاء ساعة بعد الدوام لمتابعتها.

حينما تكلمت حنان معها؛ ضحكت خالدة عاليا، وقالت بحنكة السنين:

- -تلك هي دولة الموظفين، تسيّرنا الأوراق، نحتمي بها، فتلك أدلّتنا ندافع بها عن أنفسنا.

انتبهت حنان لمقولتها، تذكرت أباها وأقاربها الموظفين، في حواراتهم عن المراسيم الحكومية والمستندات الورقية، كان هذا حديثهم الأثير، وهم في اجتماعاتهم الأسرية. كلٌّ يفاخر بملفاته وترتيبها، وأن لا سبيل إلى ثغرة فيها، فالموظف ما هو إلا كائن محصَّنٌ بالملفات، متسربل بالأوراق والأختام.

تساءلت حنان في أعماقها، يبدو أن الوظيفة هي منظومة واحدة في العالم كله، مع أي كائن يُدعى موظفًا أيًا كان موقعه. "ماذا لو عدتُ إلى مصر، وحصلت على ترقياتي المتأخرة؟ هل سأتعبد بالتوقيعات وأختام النسر؟ لا شك أنني سأصبح ورقية العقل".

يبدو أن عيون حنان المتلألئة وخدودها المتوردة قد فاجأت خالدة، فتراقص الاستفهام على وجهها. كانتا في الطابق الثاني في منزل خالدة؛ جالستينِ على مقعدين وثيرين في شرفة واسعة، وأمامهما منضدة.

صارحتها حنان بما جالَ في خاطرها، ضحكت خالدة كثيرا، فذكاء حنان أعجبها. فوجدت نفسها تحكي لحنان عن بداياتها، عندما كانت معلمة

يغدوها أمل في حب وعمل وتحقيق الذات، وكانت أولى الهمسات الناصحة لها ورقية؛ دفترا لتحضير مكتملا، مكتوبا بألوان متعددة، ودفترا للدرجات مصاحب لها، مع ملفات تقاريرها عن التلميذات، ولها أن تنام ملء جفونها، فمتى فاجأها الموجه الفني أو المديرة فإن حصونها الورقية ستذود عنها.

***

أيقنت حنان أنها في حاجة إلى خبرة حياة أخرى، وشخصية تضيف لها، بعيدا عن "هن" وحكاياتهن مع ورفيقات القسم وشريكات السكن، أو طالبات الجامعة وزميلات العمل في مصر سابقا؛ ما بين شكاوى حقيقية عن أوجاع الحياة والزواج والأولاد، أو شكاوى مصطنعة دفعا للنفسنة، ودرءا للعيون، أو الكلام المكرور عن الجديد في الملابس والموضات، والتفاخر بالماركات. وأكثر ما يكون "رغي" الساعات الطوال حول ما يجب لبسه في حفلات الأفراح، والمناسبات النسائية، أو حول فستان جديد؛ طفن المحلات من أجله، وقد لا يتناسب مع ما يتوافر لهن من مال.

بعضهن يتورطن في شراء الفستان الماركة، وتوثق ذلك بكاميرتها، بدءا من فاتورة الشراء التي تستعرضها أمامهن، وانتهاء بارتدائه مع المكياج الصارخ. ثم ينتهي الأمر كله إلى بيع الفستان لمحلات الإيجار، فقد حرقته أعينهن، فلا معنى للبسه ثانية.

ولذا، وجدت في خالدة شخصية مختلفة، خبرة مضافة، وحياة متقلبة أيضا.

***

نثرت خالدة حياتها على أسماع حنان، التي أنصتت لتتعرف ذاتا أخرى، شاعرة بتلاق بينهما، بين مكنونات الفؤادين. كلتاهما مكلومة بجفاف العمر، والدوران في ساقية الحياة، حيث تنسى الذات أنوثتها، أو بالأدق تَكبِتُها، وإن تدثرت أناقةً، وتجمّلت ألوانا، وغدا جهدها موزَّعًا بين عمل متصل نهارا، ورعاية أسرتها عقب عودتها. شتان بين الشخصيتين في العمر والتجربة، ولكنهما تتوحدان في المشاعر.

***

فوجئت حنان عندما أخبرتها خالدة أنها منفصلة عن زوجها منذ سنوات، وأنها على وشك الطلاق. كان ذلك رأس جبل الجليد، الذي يحوي في جنباته نتوءات.

تساءلت حنان عن معنى الانفصال، توردت وجنتا خالدة، وضمّت كفّيها ثم فرقتهما، فأطرقت حنان خجلا، وإن ارتسم السؤال على ملامحها، مما أوجب الجواب على خالدة، التي أعادت رأسها إلى الخلف، فتدلّى شعرها الغزير وراء ظهرها، وهي تستذكر سنوات السبعينيات، عندما أنهت المرحلة الثانوية، والتحقت بالسنة الأولى الجامعية. تقول:

- "كان بيتنا في جزيرة فيلكا، ولا يزال البيت قائما إلى يومنا، وإن بات مهجورا، بعد الغزو العراقي. تقدّم لي زوجي، كان ضابطا شابا، ولأن تقاليدنا تمنعنا من الجلوس معه، قبل الخطبة أو بعدها، فإن أبي سأل عنه، وامتدح عائلته، وأخلاقه. لم أعرفه إلا عندما أُغلق علينا باب غرفتنا، ليلة العرس. ومن ساعتها تكشفت لي

شخصيته. آثرتُ الصمت، حتى عن أمي، وحين بُحتُ لها، كنت أحمل ابنتي الثانية على يدي، والثانية أمسكها بيدي الأخرى. سمعت أمي لي، وضحكت، ونظرت إلى البنتين، وقالت: كل الرجال هكذا، فكوني لبناتك".

لم تشأ حنان أن تسألها عن شخصيته، فقد نادتها ابنتها الصغرى، طالبة منها أن تشرح لها فقرة بالإنجليزية بحكم أن خالدة كانت معلمة للغة الإنجليزية. فقامت الأم معها، وعندما اتخذت جلستها مرة ثانية، رشفت فناجين من القهوة العربية، ثم نظرت إلى حنان، وواصلت الحكي:

- -" كان جافا، عبوسا، يعاملني مثلما كان يعامل أبوه أمه، ويضيف عليه شخصيته العسكرية، وكأنني جندي أمامه، وهكذا تعامل مع بناته. وعندما كنت أعترض وأتبرم وأغضب وأعطيه ظهري، كان يتعجب، فلم يجد أمه يوما تعصي أباه، ولم يغير أباه من طباعه، واستمرت الحياة بين والديه، برضا أمه".

تواصل خالدة:

- -لم أتوقع أن يكون الزواج جفاء وغلظة، فقد عشتُ بين دواوين الشعراء، وروايات عبير التي كانت تُطبع في بيروت، أترقب الجديد منها، مع باعة الصحف، وأستمع لأغاني عبد الحليم حافظ، وأشاهد أفلامه.
- -..... ؟؟؟

- حدث الانفصال من سنوات، لم أعد أطيق ملمس أصابعه، ولا تجهم ملامحه، خاصة بعد تقاعده من العمل، وبقائه طوال اليوم في المنزل، فلم يُبقِ صديقا له، واتخذ من الديوانية مجلسا، يقلب قنوات أوربت، ويتابع مباريات كأس أوروبا، ولا يعنيه من البيت إلا أن يأكل وينام، ثم السفر في الصيف.

***

- وماذا نويتِ بعد ذلك؟

كان سؤال حنان الذي تفاجأت به خالدة، واحتارت في جوابه، فقد انفصلت عن زوجها وكفى، وها هي الآن في سبيلها إلى الطلاق. تزوجت بناتها إلا واحدة.

- -أعلم أنني سأكون وحدي في هذا المنزل الكبير، سيدة مطلقة في الخمسينيات من عمرها، تنتظر كل أسبوع قدوم بناتها مع أحفادها، تسمع منهن، وتروي لهن، ثم يذهبن مع أزواجهن في نهاية اليوم، وأظل أنا أتأمل الجدران والأثاث الفاخر.

خففت حنان عنها بقولها:

- -لقد أحسنت تربية بناتك، وتزوجن، وأديت رسالتك في الحياة.
- -وماذا عني؟ لم أعش حياتي كما أريد، لذا، أؤجل قرار تقاعدي عن العمل إلى حين، ولكن حتما سيأتي التقاعد، وحتما سأكون وحيدة.

- -فكري كيف تشغلين وقتك في أي نشاط.
- -هذا ما أفكر فيه، سأعيد قراءة شعر نزار قباني، وروايات عبير، وأستمع إلى حليم.

❊ ❊ ❊

(١٢)

يا وليد، ويا سمر،سأحزم حقائبي، فقد عزمت الاستقالة هذا العام.

***

ما كانت غربتي إلا لأدخر لكما، ما يجعلكما تعيشان به بقية عمركما دون عوز، وأن يجد محسن أدوية علاجه غالية الثمن دون عناء.

عملتُ في الغربة ليلا ونهارا، متحسبة لما هو قادم، لنعيش في ستر، وأحقق تطلعاتكما موقنة أنكما تملكان أحلاما وردية. تحدثني يا وليد عن رغبتك في دراسة تخصص نادر، يتعلق بالأقمار الصناعية، تحلم به وأنت لا تزال في المرحلة الثانوية، بأن تصبح خبيرا دوليا في الاتصالات، تتنقل طائرا بين الدول، وتتخاطفك الشركات الكبرى، والمراكز العلمية.

وتحلمين سمر أن تكوني طبيبة، وقد تفتحت عيناك على مرض والدك، وعلى عجزه وشقائه.

***

سأعود، لنحيا أسرة واحدة، سنجلس على فراش واحد، أنا وأنتم وجدتكم الطيبة، ومحسن ينصت لنا، وقد صرنا عيونه وآذانه، وأنا أقص عليكم حكايات الغربة والناس، التي اختزنتها في غربتي، طيلة اثنتي عشرة سنة، أخذت كثيرا من عمري وعمركم.

***

أما حياتي، فقد قررت أن أعيشها دون بحث عن ألم.

فقد تعلمت من سهام أن امتلك أملا، وهي التي حلمت بأطفال، يؤانسونها في وحدتها، ويرعونها في كبرها، حلم أعطاه الله لي مبكرا.

وتعلمت من روان أن أبقي على زوجي، وحبي للحياة.

وتعلمت من عواطف أن الخير حتما سيأتي، ما دامت قلوبنا نقية.

وتعلمت من خالدة معنى أن لا يكون للجفاء موضع في حياتي.

وتعلمت من محسن، أن أعيش راضية قانعة، وإن تقلبت بنا الدنيا.

❊ ❊ ❊

الاسم : أ. د. مصطفى عطية جمعة

أستاذ الأدب العربي والبلاغة والنقد الأدبي،

وباحث في الإسلاميات والحضارة، وقاص وروائي ومسرحي.

الأعمال المنشورة :

أولا : الدراسات الأدبية والنقدية :

١) دلالة الزمن في السرد الروائي، نقد، جائزة النقد الأدبي، الشارقة، ٢٠٠١.

٢) أشكال السرد في القرن الرابع الهجري، نقد، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٦

٣) ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة (الذات، الوطن، الهوية)، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١٠، وكالة الصحافة العربية، القاهرة،ط٢، ٢٠٢٣.

٤) الرؤية والأداة: في جماليات المكان والزمان والتأويل، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٣، وصدرت طبعته الأولى بعنوان اللحمة والسداة، نقد أدبي، سندباد للنشر، القاهرة، ٢٠١٠.

٥) شعرية الفضاء الإلكتروني في ضوء ما بعد الحداثة، نقد أدبي، دار شمس، القاهرة، ٢٠١٦.

٦) الظلال والأصداء، نقد أدبي، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٥م

٧) الوعي والسرد، دار النسيم للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٦م.

٨) السرد في التراث العربي (رؤية معرفية جمالية)، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ٢٠١٧م، ووكالة الصحافة العربية ناشرون، القاهرة، ط٢، ٢٠٢٣.

٩) القرن المحلق (الرواية الإفريقية وأدب ما بعد الاستعمار)، منشورات جائزة الطيب صالح العالمية، الخرطوم، ٢٠١٧م، وكالة الصحافة العربية، القاهرة، (ط٢)، ٢٠٢٣.

١٠) عضو فريق التأليف في كتاب: التأريخ واشتغال الذاكرة في الرواية العربية، ببحث عنوانه: تمثيل التاريخ العربي وإشكالات التأريخ في الرواية التاريخية، منشورات كتارا للرواية العربية، قطر، العام ٢٠١٩م.

١١) التحيز في المسرح العربي: قراءة في الجذور والنشأة والنصوص والتجارب، في كتاب محكم جماعي بالاشتراك: تلغيم الفن: المسرح بوصفه ساحة للتحيزات، منشورات دار نور حوران، دمشق، سورية، إبريل ٢٠١٩م.

١٢) الفصحى والعامية والإبداع الشعبي، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٩م.

١٣) أصداء ما بعد الحداثة: في الشعرية والفن والتاريخ، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٩م.

١٤) شرنقة التحيز الفكري: أنماط وتجليات ودراسات، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٩م.

١٥) البنية والأسلوب: دراسات نقدية، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٢٠

١٦) المعجمية العربية: قراءة حضارية في ضوء الأنثروبوجيا الثقافية. دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

١٧) الرواية العربية: قضايا الإنسان والهوية: إشكالية الريف والمدينة نموذجا، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.

ثانيا: الإسلاميات والحضارة:

١٨) هيكل سليمان (المسجد الأقصى وأكذوبة الهيكل)، ط١، دار الفاروق للنشر، القاهرة، ٢٠٠٨م. ووكالة الصحافة العربية ناشرون، القاهرة، ط٢، ٢٠٢٣.

١٩) فلسفة الرحمة في شخصية الرسول (ص)، ط٢، وكالة الصحافة العربية ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٣، وصدرت الطبعة الأولى بعنوان: الرحمة المهداة،

خلق الرحمة في شخصية الرسول (ص)، إسلاميات، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ٢٠١١ م،

٢٠) الحوار في السيرة النبوية، إسلاميات، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٥م

٢١) الإسلام والتنمية المستدامة، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٦م.

٢٢) منهج الرسول (صلى الله عليه وسلم) في إدارة الأزمات، إسلاميات، دار شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٨م.

٢٣) وسطية الإسلام في حياتنا الفكرية: قضايا التجديد والثقافة والمعاصرة، إسلاميات، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٢٠.

٢٤) الحكم الراشد: رؤية إسلامية حضارية، دار شمس للنشر والمعلومات، إسلاميات، القاهرة، ٢٠٢٠.

٢٥) صورة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الوجدان الغربي: أبعاد التجني، براهين التفنيد، الكتاب الفائز بالجائزة الأولى في المسابقة الدولية بمنصة أريد البحثية الدولية ARID Platform، ماليزيا، ديسمبر ٢٠٢٠.

٢٦) المثاقفة والتواصل: حوار الذات وحوار الحضارات، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٢.

٢٧) الطفولة والهوية والتغريب: إشكاليات النسوية والجندرية، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٢.

٢٨) أسئلة الحضارة والنهضة: إضاءة على الفكر التنويري والحداثة الإسلامية، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٣.

٢٩) التطبيع الصهيوني العربي شفرات الخداع والتدليس، منشورات مركز الشرق للأبحاث والثقافة (ECR)، ٢٠٢٣.

ثالثا: الإبداعات الأدبية:

٣٠) وجوه للحياة، مجموعة قصصية، نصوص ٩٠، القاهرة، ١٩٩٧م

٣١) نثيرات الذاكرة، الجائزة الأولى في الرواية، دار سعاد الصباح، القاهرة / الكويت، ١٩٩٩م.

٣٢) شرنقة الحلم الأصفر، رواية، جائزة الرواية عن نادي القصة، بالقاهرة، ٢٠٠٢، نشر: مركز الحضارة العربية،٢٠٠٣م.

٣٣) طفح القيح، مجموعة قصصية، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٣٤) أمطار رمادية، مسرحية، مركز الحضارة العربية بالقاهرة، ٢٠٠٧م.

٣٥) نتوءات قوس قزح، رواية، سندباد للنشر، القاهرة، ٢٠١٠.

٣٦) مقيم شعائر النظام، مسرحيات، دار الأدهم للنشر، القاهرة، ٢٠١٢م.

٣٧) قطر الندى، مجموعة قصصية، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٣م.

٣٨) على متن محطة فضائية، رواية للأطفال، منشورات مكتب التربية لدول الخليج العربي، الرياض، ٢٠١٢م.

٣٩) سفينة العطش، مسرحية للأطفال، منشورات مكتب التربية لدول الخليج العربي، الرياض، ٢٠١٢م.

٤٠) أصدقاء في عالم الفضاء، رواية للفتيان، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٣، ط٢، وصدرت الطبعة الأولى بعنوان: رواد فضاء الغد، أطفال، منتدى الأدب الإسلامي، الكويت، ٢٠١٤م.

٤١) لكل جواب قصة، مسرحيات للأطفال، منتدى الأدب الإسلامي، الكويت، ٢٠١٤م.

٤٢) سوق الكلام، مسرحيات، دار النسيم للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٧م.

٤٣) حدث مألوف، قصص قصيرة جدا، دار شمس للطبع والنشر، القاهرة، ٢٠٢٣.

٤٤) جزيرة الفئران، مسرحيات للأطفال واليافعين، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

٤٥) الحسن بن علي، رواية للأطفال واليافعين، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

٤٦) البرتقالة في الزجاجة، مجموعة قصصية للأطفال واليافعين، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

٤٧) صندوق الألعاب، مجموعة قصصية للأطفال، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

٤٨) الفقر مقتولا: قصة البروفيسور محمد يونس وحربه ضد الفقر في بلاده، قصة للفتيان، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.

٤٩) النسيم والهجير، رواية، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.

٥٠) رحيق الألم: قصة حياة "لي ميونغ باك" رئيس كوريا الجنوبية، رواية للفتيان، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٢٤.

٥١) المتسابقون للفردوس، مسرحيات للفتيان، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.

٥٢) كنتُ ملحدًا: سيرة العالم الأمريكي جفري لانغ، قصة للفتيان، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.

❊ ❊ ❊

النسيم والهجير

"هكذا دأبت أن تكون ذاكرتها حيّة أينما تحرّكت، فالغربة علّمتها أن تحيا بالذكريات، تستلذ بها كلما استعادتها، وكأنها مشهد سينمائي، كلما شاهدته، وجدت فيه الجديد من التفاصيل، بل وتتمعن فيه أكثر، بحثا عن المزيد من المنمنات التي تبهجها".

تتداعى أحداث هذه الرواية بين أمواج الخليج وشاطئ الإسكندرية، عبر تقنية التقاطع الزمني والارتداد، لنعيش تفاصيل الحياة اليومية الروتينية لبطلتها، وذكرياتها عن الطفولة والشقاوة، وأيام الجامعة والرومانسية المصطنعة، وشخصيتها المتمردة.

النسيم والهجير

د. مصطفى عطية جمعة

9 789778 703696